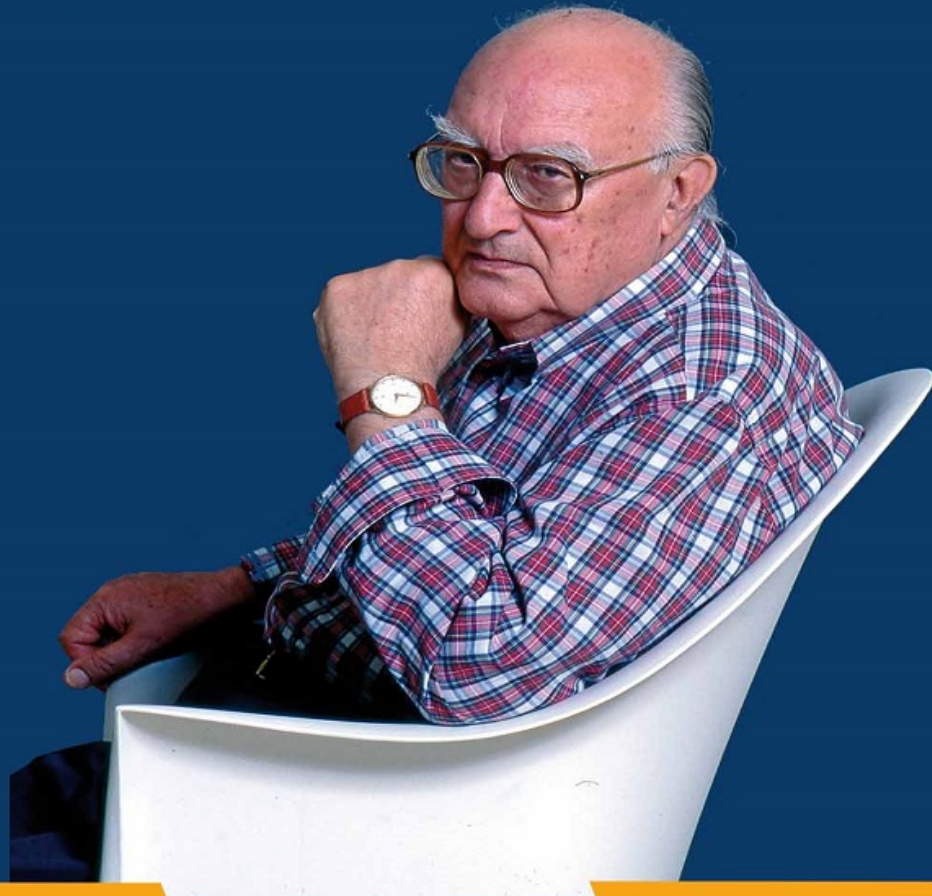


# والآن حدثيني عن نفسك

—رسالة إلى ماتيلدا—

أندريا كاميليري



ترجمة: أماني فوزي حبشي



والآن حدثيني عن نفسك

الكتاب: والآن حدثيني عن نفسك

المؤلف: أندريا كاميليري

ترجمة: : أماني فوزي حبشي

التصنيف: سيرة ذاتية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: فبراير (شباط) 2020 م

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 1 - 768 - 429 - 614 - 978 - ISBN

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لمدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من مدارك.

Madarek مدارك  
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية  
8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia  
Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

🌐 mdrek.com

✉ read@mdrek.com

🐦 📷 📺 📺 📺 DarMadarek



"عززون" ... فخلال إنتاج مواد مترجمة تقدموا بمدارك  
بمجهود الزملاء، من خلال الظاهر، الذي أختار أن يكون  
التحکم والجهد، هدية لأمة، منزة بحمد الله، حيث كانت ترسل  
كالسحابة، وتغيب كالطير، وتجب العلم بشيخف.

ترقي الدخيل

٢٠١٨/٩/٢٥



## تقديم للمترجمة

عندما اقترحت عليّ دار نشر بومبياني الكتاب منذ بضعة شهور وعرضته على دار نشر مدارك، لم أتوقع أن توافق الدار على ترجمة عمل حديث لهذه الدرجة (كان العمل نشر للتو)، ولم يترجم بعد إلى أية لغة أخرى، ولكنهم وافقوا، وأود هنا أن أشكرهم على ثقتهم وجسارتهم في اختيار الأعمال الحديثة للترجمة.

في أثناء ترجمتي للصفحات الأخيرة أصيب كاميليري بأزمته القلبية التي توفى بعدها ببضعة أيام، وللمفارقة حدث ذلك في اليوم التالي لانهائي من الترجمة.

ولكنه ترك لماتيلدا وللقراء سردًا شخصيًا إنسانيًا لفترة تاريخية مميزة في تاريخ إيطاليا وأوروبا كلها، من وجهة نظر شخصية إنسانية، فهو حكى لنا عن فترة أزمة إيطاليا مع الفاشية بعيني طفل ثم شاب، طفل تأثر وأمن بها في البداية ثم شاب قارئ استطاع أن يعيد تقييم مفاهيم وأفكار تربي عليها، فسيرة كاميليري لا تحكى لنا قصته فقط بل تُطعننا على تأثير القراءة والدراسة وأهميتهما في تغيير الأذهان، بل هي سيرة إنسان لم يتوقف قط حتى في شيخوخته عن أن يدرك أنه شخص «قيد التطوير» وأنا نتغير ونتعلم كل يوم.

حاولت قدر المستطاع في الهوامش القيام بشيئين: أولاً نقل الأسماء بحروفها الإيطالية ليسهل على من يرغب في البحث عن الشخصيات المذكورة العثور عليها، وفي الوقت نفسه إبقاها عن المتن حتى لا يُرهق تجاور اللغتين القارئ. ثانيًا تعريف مختصر بما يعتبره كاميليري معروفًا للإيطاليين، ولكن قد لا يكون الأمر كذلك بالنسبة إلى قارئ اللغة العربية.

وأتمنى أن أكون بترجمتي استطعت أن أنقل بساطته في الحكى وهو يتحدث عن نفسه.

أماني

## ماتيلدا، عزيزتي

بينما أنتِ ما زلتِ في الرابعة من عمركِ، ولا تعرفين الحروف بعد، أكتب إليك خطابي الطويل هذا، قبل أيام من عيد ميلادي الثاني والتسعين.

أتمنى أن تتمكني من قراءته عندما تكونين في ريعان شبابه.

أكتب إليك «عميانياً»، سواء بالمعنى الحرفي أم المجازي. بالمعنى الحرفي لأنني في أعوامي الأخيرة هجرني النظر ببطء. الآن لا أستطيع القراءة ولا الكتابة، يمكنني فقط أن أُملي. وبالمعنى المجازي لأنني لا أستطيع أن أتخيل كيف سيكون العالم خلال عشرين عامًا، ذلك العالم الذي سيكون عليك أن تعيش فيه.

أترين يا عزيزتي، في الثلاثين عامًا الأخيرة، كانت التغييرات التي حدثت حولي كثيرة جدًا، وبعضها كان غير متوقع على الإطلاق، ومفاجئًا. لم يكن العالم ما كان عليه في أثناء شبابي ونضوجي، وما غيّر وجهه ساهمت فيه التبدلات السياسية والاقتصادية، الحضارية والاجتماعية، الاكتشافات العلمية واستخدام التكنولوجيا الحديثة، وحركات الهجرة الجماعية الضخمة من قارة إلى أخرى، وتقريبًا سقوط حلمنا الخاص بالاتحاد الأوروبي.

ولكن لماذا أشعر بالاحتياج الملح إلى أن أكتب إليك؟

أجيب عن سؤالك هذا بنوع من المرارة؛ لأنني مدرك تمامًا، لوصولي إلى حد معين من السن، أنني سأحرم من رؤيتك تنضجين يومًا بعد الآخر، والاستماع إلى أفكارك الأولى، ومتابعة نمو عقلك. أي إنه سيكون من المستحيل عليّ التحدث والتحاور معك، لذلك لن تكون تلك الأسطر سوى البديل الفقير لذلك الحوار الذي سيحدث بيننا. لذلك قبل كل شيء، أعتقد أنه من الضروري أن أقول لك شيئًا عن نفسي. ربما ستحدّثك أمك أليسandra عني، ولكنني أفضل أن أقول لك أنا عن نفسي وعن زماني بكلماتي، حتى إن -وأتمنى ذلك من كل قلبي- بدا بعض منها مثل: النازية والفاشية والتعصب ومعسكرات الإبادة، والحرب، والديكتاتورية، قديمًا وغير آن.

وُلدت عام ١٩٢٥ في بورتو إيمبيدوكلي (1)، بلدة صغيرة في جنوب صقلية. كانت أغلبية السكان مكونة من الصيادين، وعمال الموانئ، وسائقي الناقلات، والفلاحين، قليل جدًا من الموظفين الصغار، وأقل منهم التجار. عندما ذهبت إلى الصف الأول الابتدائي، وجدت نفسي في فصل زملائي فيه يعيشون -جميعهم تقريبًا- في ظروف شبه فقيرة. تخيلتي، كان أبناء الفلاحين يأتون إلى المدرسة وأحذيتهم معلقة في رقابهم حتى لا يستهلكوها، وكانوا يضعونها فقط عند دخولهم الفصل. أعتقد أنني لم أستطع قط أن أكل كل الغذاء الذي كانت أمي تضعه لي كل صباح في الحقيبة. كنت أتقاسمه، تقريبًا دائمًا، مع الآخرين، فلم أكن أحتمل نظرات الحسد والجوع من زملائي.

عندما وُلدت، كان بينيتو موسوليني رئيس الحكومة الإيطالية منذ ثلاثة أعوام، وكان قد أخضع الدولة لنظام الديكتاتورية الفاشية. نظرًا إلى أنني أعتقد أنه سيصعب عليك فهم هذا التعبير «فاشية»، سأحاول أن أقص عليك ذلك الذي حدث في تلك الأعوام.

كانت نهاية الحرب العظمى عام ١٩١٨، نهاية منتصرة بالنسبة إلينا، وكانت لا بد -نظريًا- أن تجلب إلى إيطاليا فترة من الهدوء الاقتصادي والاجتماعي، إلا أن الأشياء سارت على نحو مختلف. كان الجنود العائدون من الجبهة يعثرون بصعوبة على عمل، لأن التحول في صناعة السلام لتلك التي كانت لأعوام طويلة صناعات حربية، لم تنجح بسرعة. أيضًا كان الوضع بين أصحاب الأعمال والعمال في تنازع صريح، ولم يُنفذ أي من الوعود التي أعطوها للجنود في أثناء الحرب، وكانت الصدمات في الميدان بين الشرطة والجنود السابقين وبين الشرطة والعمال كثيرة جدًا، وهكذا قرر أصحاب الأراضي الكبار في شمال- ووسط البلاد، وبعض الصناعات المهمة أنه لا بد من عودة بعض النظام.. لكن الأمر كان يتطلب شخصًا لديه الكاريزما الضرورية، ويمكنه أن يُخلص للمهمة المعهودة إليه، ووقع اختيارهم على الرئيس الاشتراكي السابق، والمدير السابق للجريدة اليومية للحزب الاشتراكي Avanti!، وكان يُدعى بينيتو موسوليني. كان مؤيدًا بشدة للحرب، بل حارب أيضًا في صفوفها الأولى. بإيجاز جمع موسوليني حوله كل المحاربين السابقين، وذلك الجزء من البورجوازيين الذي يرى في استياء العمال خطرًا حقيقيًا. مستوحيا من الرمزية لدى الرومان القدماء، أسس مجموعات النضال الفاشي، وكان المنضمون إليها يرتدون القميص الأسود ويتسلحون بهراوات ويميلون إلى العنف.. كان يُقال عنهم «الفرق». وفي وقت وجيز اشتعلت النيران في عديد من مقار الجمعيات الاشتراكية، وكانت هناك مصادمات عنيفة وسقط

قتلى من الجهتين. عام ١٩٢١ حدث انقسام بين الاشتراكيين أنفسهم، وُلدَ بذلك الحزب الشيوعي الإيطالي، وكان سكرتيره الأول هو أنطونيو جرامشي، وصار الشيوعيون الهدف المُفضل للفاشييين.

عام ١٩٢٢ أدرك موسوليني أنه يمكنه الاعتماد على دعم الأغلبية العظمى للشعب الإيطالي، وبهذه الطريقة، في الثامن والعشرين من أكتوبر من العام نفسه، ومع وجود الآلاف المنضمين إلى حزبه، سار نحو روما. كان الوضع خطيرًا جدًا. وعلى أبواب العاصمة وجد الفاشيون أنفسهم في مواجهة الجيش الإيطالي، وعندئذ كانت الحرب الأهلية حتمية. ذهب رئيس الوزراء فاكتا(2) إلى الملك ليتم الإعلان عن حالة الحصار، وبكلمات أخرى ليسمح للقوات بأن تطلق نيرانها على الفاشيين. ومن ذلك الصراع كانت النزعة الفاشية بالتأكيد ستمحي، ولكن، في قرار غير متوقع للملك، فإنه لم يمتنع فقط عن التوقيع على قرار الحصار، بل استقبل بينيو موسوليني في مقر رئاسة الجمهورية، ومنحه مهمة تشكيل الحكومة الجديدة. وهنا أظهر موسوليني شيئًا من الخبث السياسي، فحكومته الأولى تلك ضمت أيضًا الليبراليين والديموقراطيين والاشتراكيين، لكن كل هذا استمر لفترة وجيزة، وسرعان ما أدرك الجميع أن موسوليني كان يتطلع إلى أن يكون الزعيم الوحيد. تفاقم الموقف عام ١٩٢٤، عندما اغتيل النائب الاشتراكي جاكومو ماتيو(3)، الذي كان أكثر خصوم موسوليني ذكاءً وشجاعةً. وأمام هذا الاغتيال السياسي تفاعل جزء كبير من البلد سلبيًا، ورأى موسوليني سلطته تهتز، ولكن بمساعدة فرقه الأكثر ضراوةً وعنفاً، استطاع في وقت وجيز أن يدعم موقفه.

منذ تلك اللحظة في إيطاليا تحولت الفاشية إلى ديكتاتورية حقيقية. حل موسوليني البرلمان ومجلس الشيوخ، وأسس مجلسًا من الفرق الفاشية والتعاونيات المكونة من رجاله المخلصين، ومنع النشر في الصحف المنتمة إلى اليسار، وأمر بالقبض على أنطونيو جرامشي(4) (وتركه بعد ذلك ليموت في السجن)، وأحمد بالعنف كل تظاهر بالرفض. كان بحاجة إلى شباب من أجل أهدافه التوسعية، وهكذا بدأ في سياسة التعداد المجنونة، وبدأ يمنح المكافآت للعائلات التي لديها أكبر عدد من الأبناء، وأعفى شباب المتزوجين الذين يمنحون خلال عام من زواجهم -كما كان يُقال آنذاك- «ابنًا للوطن»، من الضرائب، وفرض الضرائب على العزاب. وفيما عدا قليل من السياسيين الذين هربوا إلى الخارج، تحققت ظاهرة غريبة، هي أنه سرعان ما حصلت النزعة الفاشية على تأييد جميع الإيطاليين تقريبًا. ثم شد موسوليني الحزام أكثر، وأراد أن يُقسم كل موظفي الدولة بالإخلاص للنظام الفاشي وينضموا إلى عضويته. جميع، وأؤكد، جميع موظفي الدولة، من معلمي المدارس الابتدائية إلى أساتذة الجامعة، ومن القضاة إلى الفراشين، أطاعوا هذا الأمر. ولكن

يجب أن نقول -من أجل استحقاقهم الأبدي- إنه فقط أربعة وعشرون أستاذًا جامعيًا رفضوا أن يقسموا، وبالتالي فُصلوا من وظائفهم. وفي عام ١٩٢٥، عندما، كما قلت، وُلدت أنا، كانت النزعة الفاشية بالفعل ديكتاتورية راسخة، وضمت بداخلها الأطفال والشباب في منظمات شبه عسكرية، وكنا نرتدي يوم السبت الزي الفاشي ونذهب لنؤدي التدريبات. وكنت أنا أنتمي إلى المنظمة القومية للتشبيبة (5)، وكان شعارنا: «الكتاب والمسكيت (6)»، يصنعان الفاشي الكامل»، ولكن في الحقيقة كان رفاقي يقرؤون قليلاً جداً من الكتب، أو لا يقرؤون على الإطلاق.

أما أنا فقد كنت أعد استثناءً. ففي الخامسة من عمري كنت قد تعلمت بالفعل القراءة والكتابة بمساعدة أمي وجدتي لأمي إيلفيرا، وفي سن السادسة كنت قد وضعت بالفعل يدي في مكتبة أبي التي كانت مليئة بالكتب. وهكذا بدأت أقرأ ليس كتب الأطفال أو الصبية، بل كتب الكبار، والروايات المهمة. وكانت قراءاتي الأولى في الواقع لكونراد، وميلفيل، وسيمونون (Z). منذ تلك اللحظة لم أتوقف قط عن القراءة. لا أكف عن إدهاش نفسي بالطريقة التي بها كانت الكلمات المكتوبة تصل إلى ذهني، كأنها تقريبًا قيلت لي بصوت واضح، كانت معجزة تبهرني. في المدرسة كان المعلمون يرددون علينا في كل يوم الكلمات الثلاث الخاصة بنظام موسوليني: «الإيمان والطاعة والنضال»، ويضخمون ذكاء الدوتشه لنا، هكذا كانوا يطلقون على موسوليني وعلى رغبته في تعظيم إيطاليا. كل يوم سبت، بعد التدريبات، كانوا يصحبوننا إلى الكنيسة حيث كان الكاهن يشرح لنا دروس التربية المسيحية، ولكن لم يكن يضيع أية فرصة ليذكرنا أن البابا دعا موسوليني بأنه الرجل الذي أرسلته العناية الإلهية، وبالتالي لا بد لنا من اتباعه بثقة عمياء. النتيجة الحتمية لذلك أنني أصبحت في سن العاشرة فاشيًا مخلصًا، إلى درجة أنه، عندما أعلن موسوليني عام ١٩٣٥ الحرب على الحبشة، كتبت له أطلب منه أن يسمح لي أن أرحل متطوعًا إلى ميدان المعركة. وباندهاش وفرح تلقيت ردًا على خطابي، مكتوبًا فيه أنني ما زلت صغيرًا جدًا.

وفي العام التالي ١٩٢٦ اشتعلت حرب أخرى، حرب إسبانيا، التي كانت نوعًا من الفصل بين الفاشيين ومناهضي الفاشية. أترين، عندئذٍ كانت أوروبا تحكمها الديكتاتوريات وليست الحكومات الديمقراطية: في روسيا كان يوجد ستالين، في إيطاليا موسوليني، هتلر في ألمانيا وفي البرتغال سالازار. وتسببت حرب إسبانيا في ظهور ديكتاتور جديد: فرانسيستكو فرانكو. وكانت الديمقراطية الوحيدة اللتان مكثتا على حالهما في أوروبا هما حكومتا فرنسا وإنجلترا، وهكذا لم يكن في الإمكان تجنب الصدام بين تلك المفاهيم المختلفة، وبالتالي عام ١٩٣٩ وبسبب الأهداف التوسعية لهتلر اندلعت الحرب العالمية الثانية.

عندما دخلنا نحن الإيطاليين أيضًا الحرب عام ١٩٤٠ كحلفاء لهتلر، لم أكن متحمسًا كثيرًا لأنني رأيت جدتي في المنزل تبكيان في صمت. في الحرب السابقة فقدت كل منهما ابناً سقط في المعركة. قالت جدتي إيلقيرا وهي تربت عليّ: «الحرب شيء ملعون دائمًا». وأبي أيضًا في تلك الأيام كان يدور في المنزل بوجه معتم، وفي صباح أحد الأيام سمعته يقول لأمي إن إعلان الحرب خطأ موسوليني الفادح. ضدمت. كان أبي يحارب في الصفوف الأمامية في الحرب في الفترة بين ١٩١٥-١٩١٨، ثم أصبح فاشيًا منذ الساعة الأولى. ولكنني كنت أتساءل بيني وبين نفسي إذا كان موسوليني لا يمكن أن يخطئ كما يقول أعضاء الحزب، وإذا كان موسوليني رجل العناية الإلهية والمبعوث الإلهي لخير إيطاليا كما يقول الكهنة في المدرسة، ما الذي يدفعه إلى ارتكاب خطأ كهذا؟

وكانت هذه السقطة الثانية لإيماني بالفاشية. الأولى كانت قد حدثت قبل ذلك بوهلة، عام ١٩٣٨. بينما كنت في المدرسة أتى أحد زملائي، واسمه إرنستو بيررا، بعد انتهاء الدرس ليصافحني.

قال لي: منذ الغد لن نتقابل، لا يمكنني الاستمرار في هذه المدرسة.

نظرًا إلى أنه كان ابن أحد عمال السكة الحديدية، سألته إذا كان السبب يتعلق بنقل والده.

أجاب هو: لا، لا أستطيع الاستمرار هنا لأنني يهودي.

ولماذا لا يمكن ليهودي أن يتردد على مدرستي؟ وعندما عدت إلى المنزل في ساعة الغداء طلبت تفسيرًا من أبي، فاحمر وجهه على الفور، وأكد لي بصوت متغير:

- لا يجب أن تصدق تلك الخرافات الخاصة باليهود، ليس لدى اليهود شيء مختلف عنا، إنهم مثلنا تمامًا. إن مسألة العرق تلك من اختراع هتلر، ولم يرغب موسوليني في أن يكون أقل منه. ولكن لا تصدق ما سيقولونه لك، فنحن جميعًا متساوون.

والآن في سن الثانية والتسعين لا بد أن أقول إنني لن أتوقف أبدًا عن شعوري بالامتنان لأبي بسبب كلماته تلك.

وما أعطى الضربة القاضية لإيماني بالنزعة الفاشية كان التجمع العالمي لشبيبة النازي-فاشية، الذي حدث في فلورانس في ربيع عام ١٩٤٢، بالقرب من مسرح البلدية. كان المسرح، منذ الساعات الأولى، قد امتلأ بالشبان الذين حضروا من كل أنحاء أوروبا، بطبيعة الحال، من أنحاء أوروبا التي احتلها النازيون، اليونانيين والبولنديين، المجرية والرومانيين، الألبان والسلوفاك، وبطبيعة الحال كان هناك تمثيل كبير للشبيبة الألمانية. كنا جميعًا نرتدي الزي العسكري. ونظرًا إلى عشقي المبكر للمسرح، كنت قد دُعيت لأعرض مرجعًا مثاليًا لشبان الفاشية.

في اليوم الثاني من التجمع وقع حادث. عند فتح الستار، لدهشتي رأيت أن الخلفية كانت مُكونة فقط من علم نازي ضخمة. في اليوم السابق لذلك كان يجاوره أيضًا ذلك الإيطالي. عندما رأيت ذلك كان رد فعلي عنيفًا جدًا، إلى حد لم أكن أتصوره. نهضت وأخذت أصرخ:

- لتزعوا هذا العلم! أو على الأقل ضعوا أيضًا علمنا.

كانت هناك لحظة صمت تام، ثم بطريقة مفاجئة تمامًا أخذ عديد من الشباب يصفقون لكلماتي. أغلق الستار على الفور، وفتح ببطء بعد ذلك، وكان العلمان موضوعين. انفجر تصفيق حاد. دخل وفد من أعضاء الحزب الإيطالي والألماني وجلسوا خلف المائدة الطويلة الموضوعة على خشبة المسرح، ونهض ليتحدث أولاً أليساندرو بافوليني (8)، الذي كان حينئذٍ وزير الثقافة الشعبية، وفي نهاية خطبته، نزل من على الخشبة وبدأ يسير في الممر المركزي نحو باب الخروج. وكنت أنا أجلس إلى مقعد جانبي موضوع تقريبًا في الممر، أشار هو إليّ، بيده اليمنى، بعد أن مر أمامي، بأن أتبعه. نهضت

واقتربت منه. وصلنا إلى مدخل المسرح الذي كان مهجورًا، توقف هو،  
والتفت لينظر إليّ وقال لي:

- اقترب أيها الغبي.

بمجرد أن أصبحت أمامه، رفع قدمه اليمنى حيث يرتدي حذاء برقبة وركلني  
بعنف شديد أسفل بطني، ثم استدار وذهب. مكثت على الأرض أئن من الألم،  
ولكن اثنين من رفاقي، جاسباري جوديتشي، ولويجي جيليا(9)، كانا قد فهما  
نوايا الوزير وبالتالي تبعاني. كانا هما من استدعيا سيارة أجرة واصطحباني  
إلى المستشفى.

عدت إلى المسرح بعد ذلك بيومين، لاحتفالية الختام. كان المتكلم هو بالدور  
فون شيراخ، زعيم شبيبة هتلر(10)، ونظرًا إلى أن موضوع اللقاء كان «أوروبا  
الغد»، وصف هو كيف ستصبح أوروبا حسب الأيديولوجية النازية. وفي أثناء  
حديثه كنت أعرق عرقًا باردًا، فأمام عيني تحولت أوروبا إلى ثكنة عسكرية  
ضخمة رمادية، ليس بها سوى لون الزي النازي، وكتاب واحد جميعنا مجبر  
على قراءته، كفاحي(11)، الذي ألفه أدولف هتلر. وبينما يستكمل فون شيراخ  
عرضه، كنت أنا أتساءل: وماذا عن مؤلفي المفضلين؟ جوجول(12) العزيز؟  
وأندريه جيد(13)؟ ألن أتمكن من قراءة تهما؟ هل لا بد أن أقرأ فقط مؤلفين  
ألمان «مسموحًا بهم»، وأرتدي إلى الأبد ذلك الزي الذي عليّ الآن؟

وفي أثناء رحلة العودة إلى صقلية، عندما فكرت من جديد في خطبة فون  
شيراخ، تمنيت، برعب داخلي رهيب، ألا تكون أوروبا تلك التي يحلم بها  
النازيون، ممكنة التحقق، وأن يفسل تصورهم. وكانت هذه بداية أزمتي  
العظمى. قضيت ليلاً بلا نوم، لم أتمكن من أن أتحدث مع أحد عن ذلك، خوفًا  
من الإبلاغ عني. كنت أعاني بالفعل، فقدت كثيرًا من الوزن، وكنت أتناول  
الطعام بصعوبة، ولم أكن، تقريبًا، أتحدث مع أي من زملائي. أدركت أن كوني  
منضمًا إلى الحزب الفاشي يمثل خطأ رهيبًا، ولكنني كنت أشعر بأنني خائن،  
وخصوصًا تجاه أبي، الذي استمر يؤمن بالنزعة الفاشية، حتى لو كان ذلك  
بطريقته الخاصة.

استمرت تلك الأزمة شهرًا طويلًا. ثم في صباح أحد الأيام، أخيرًا أدركت  
أنني تحررت تمامًا من الفكر الفاشي. لم تكن لدي أية وساوس أو شكوك.  
بالإضافة إلى ذلك، في تلك الأيام بالتحديد، وقع بين يدي كتاب هرب بطريقة  
معجزية من الرقابة، كان كتاب «الشرط الإنساني»(14) لأندريه مارلو. قرأته.  
أعتقد أن كتلاً من مخي قد انتقلت من مكان إلى آخر في تلك الليلة.

هاجمتني حمى خفيفة. في ذلك الكتاب اكتشفت أن الاشتراكيين المكروهين جدًا ليسوا إلا أناسًا مثلنا، وليسوا مختلفين عنا، فهم لا يأكلون أبناءهم، ولديهم أفكار مثالية مثل تلك التي لي. وبين كتب أبي كان هناك شيء كملخص «الرأسمالية» لكارل ماركس، أخذته وبدأت أقرأه. وكان هناك أيضًا «البيان» (15)، ذلك المانيستو الشهير الذي يبدأ كالتالي: «شبح ينتاب أوروبا..». فهمت أن تلك الأفكار تتفق مع ذلك الذي كنت أشعر به في داخلي. منذ المرحلة الابتدائية كنت أفكر في أنه ليس من العدل أن يكون لدى حذاء لامع جدًا، في حين يسير رفاقي بأقدام حافية، وأن أرثدي معطفًا من الصوف في الشتاء وهم يصلون إلى المدرسة بقمصان ممزقة وبالية. كانت أفكارًا مضطربة، ولكن كان الواضح أن بداخلي الشعور بعدم العدالة. لم يكن من العدل ألا ينطلق الجميع من النقطة نفسها، وأن يبدأ البعض مستقبلهم بطريقة أقل حظًا، ويكون مصيرهم كفقراء مكتوبًا بالفعل. لا، لم يكن عدلاً. وهكذا بدأت أصبح اشتراكيًا بالتدريج، في قلب النظام الفاشي.

بمجرد أن فقدت إيماني بالنزعة الفاشية، وتقريبًا في الوقت نفسه، بدأت أفقد أيضًا حماسي للإيمان الديني، حيث أن الكنيسة والنظام، في السنوات الأخيرة، تماهيا تمامًا.

أنهيت الصف الثالث الثانوي في أبريل عام ١٩٤٣. وفي أول يوليو استدعيت إلى الجيش مبكرًا سنة. كانت عائلتي قد انتقلت إلى بلدة في وسط صقلية لتجنب القنابل التي كانت تنهمر علينا نهارًا وليلاً. ظل أبي فقط في بورتو إيمبيدوكلي. أما أنا، فلمدة تسعة أيام فقط، خدمت في القاعدة البحرية لأجوستا، ولم أبحر قط. في الليلة بين التاسع والعاشر من يوليو، أخبرني رفيق لي أن الإنجليز والأمريكان رسوا في صقلية. قررت على الفور أن أترك خدمتي العسكرية، ورحلت من الثكنة العسكرية، طلبت من سيارة نقل أن تقلني، وبعد يومين من الجحيم استطعت أن ألحق بعائلتي. وأمام أول دبابة أمريكية رأيتهما تظهر، بكيت.

انتابني شعور متناقض: من جهة كنت سعيدًا للهزيمة النهائية للفاشية والنازية، ولكن من الجهة الأخرى، كانت رؤية دبابة أجنبية على أرضي تتسبب لي في ألم شديد. كان الجنود الأمريكيون الحلفاء، الذين يرسون على صقلية ويفغزونها، هم عمليًا من انتصروا في الحرب، في حين كنا نحن المهزومين.

إلا أن الشعب كله استقبل أولئك الجنود بالفرح والحماس. كانوا يمثلون نهاية كابوس. في الواقع في الشهور الأخيرة كان قصف القنابل مكثفًا، نهارًا وليلاً،

وكانت كل طرق التواصل قد دُمرت. كان وصولهم يعني نهاية الحرب، فلم تعد هناك مواد للإعاشة، وكان من الصعب الحصول على أدوية. كان وصولهم يعني نهاية الحرب، ولكن كان يعني أيضًا شيئًا أكبر من ذلك بكثير: الحرية. كانوا يطلقون عليهم «المحررون»، لأنهم كانوا سيحرروننا من أكثر من عشرين عامًا من الديكتاتورية الفاشية وسيعيدوننا من جديد إلى الديمقراطية.

عشت تلك الأيام الأولى من تلك الحرية في حالة من النشوة. أعتقد أنني كان لديّ طوال الوقت شيء كالابتسامة البلهاء على وجهي. كأن الرياح الساخنة تربت على وجهي وعلى جسدي. كانت تسكرني معرفة أنني أخيرًا سأستطيع أن تكون لديّ أفكار غير تقليدية، وأني سأستطيع أن أعبر عنها بحرية، وربما سأعثر على أشخاص، ربما لا يفكرون في الأمر بطريقتي، ولكن يمكن معهم التهاور والتحدث والمناقشة أيضًا بحيوية، من دون الشعور بالخوف من الأذن الجبانة والخفية التي يمكن أن تستمع إلينا وأن تذهب لتبلغ عنا الشرطة السياسية. كانت رياح الحرية تدفعنا إلى الأمام. كنا نعيش في بلدة مُدمرة تمامًا، خالية من المصانع والسكك الحديدية، ومن أي شيء يمكن أن يتخيله أحد، إلا أننا نعرف في قرارة أنفسنا أن تلك الفترة ستكون لها نهاية عن قريب. كنا نعرف أن إيطاليا ستستطيع أن تنهض من أنقاضها تلك. وكان الشيء الرائع في تلك الأيام هي تلك اللحظات الحرجة، كان الجميع -بصرف النظر عن الحزب السياسي الذي ينتمي إليه- يوجد جنبًا إلى جنب في عملية إعادة البناء تلك.

ووصل فرحي إلى قمته عندما تحررت إيطاليا كلها من النازية الفاشية في ٢٥ أبريل عام ١٩٤٥، وذلك بفضل كل من حملوا أسلحتهم في تلك الأعوام ليحاربوا الألمان: قوى المقاومة والمناهضون للفاشية. ولكنني حُرمت، للأسف، من تلك الحركة العظيمة المُجددة، نظرًا إلى أنني كنت في صقلية.

لا بد أن أعود خطوة إلى الوراء. عندما كنت أذهب إلى المدرسة الابتدائية، كنت طفلًا هزيلًا ومريضًا، في حين كان زملائي -على الرغم من الفقر الذي يعيشون فيه- يتمتعون جميعهم بصحة جيدة. لم أكن قط ضحية لما يطلقون عليه اليوم «تصرفات متنمرة»، ولكن في الواقع كان يُنظر إليّ بنوع من الشفقة. إلا أنني في أحد الأيام قررت أن أضع نفسي على قدم المساواة مع أولئك الزملاء وبدأت الاشتراك معهم في ألعاب ما بعد المدرسة، التي كانت بكل صراحة -خطيرة. كان فصلي مقسمًا إلى عصابتين، وكانتا تتبادلان كثيرًا معارك بإلقاء الحجارة. انضمت أنا إلى واحدة منهما وسرعان ما أصبحت رئيسها. بطبيعة الحال كانت معارك ما بعد الظهر لا تترك مساحة كبيرة

للواجبات في المنزل، وبالتالي بدأ المعلمون يشكون لوالدي، وتعرضت لكثير من العقوبات. بعد الانتهاء من المرحلة الابتدائية، التحقت بالإعدادية- الثانوية لإمبيدوكلي في أجريجتو. في كل صباح، في السابعة والنصف كنت أركب الحافلة التي كانت تقلني إلى المحطة الرئيسية. وفي ميدان سان فرانشسكو، حيث توجد المدرسة، كنا نتقابل، مئات الأولاد، وتبادل الأخبار حول ما يحدث في البلاد المختلفة التي تأتي منها.

وفي صباح أحد الأيام، في الصف الثاني الإعدادي، وبمجرد أن دق الجرس الذي يعلن بداية الحصة الأولى، استدرت، وبدلاً من أن أدخل إلى الفصل، ذهبت لأتنزه. تكرر الأمر في اليوم التالي واليوم الذي يليه أيضاً. كنت أقوم بجولات طويلة في الريف، وأدفع بنفسى حتى وادي المعابد (16)، وهناك كنت أتوقف لأقرأ بعض الروايات في ظلال الأعمدة اليونانية. باختصار لم أضع قدمي لمدة ثلاثة أشهر في المدرسة. عندما كنت أفكر في فصلي، كان يتحول أمام عيني إلى زنزانة بشعة في السجن، وأشعر بضرورة أن أعيش في الهواء الطلق، دون أن أطيع أية أوامر، إلا تلك التي أعطيها أنا لنفسى، من حين إلى آخر. وفي نهاية الثلث الأول من العام الدراسي، عندما سلموا لنا شهادتنا، لم يكن في الإمكان تقييمي بسبب غيابي المقرط. كيف يمكنني أن آخذ هذه الشهادة إلى البيت؟ عندئذٍ ابتعت عبوة «سائل التصحيح»، تركيبة كيميائية يمكن أن تمحو كتابة الحبر دون ترك أي أثر. ونجحت العملية تماماً، وأعطيت نفسي درجات عادية مناسبة لتلك التي حصلت عليها في الدورة الدراسية السابقة. وفي ساعة الغداء، سألني أبي الذي لم يكن يهتم مطلقاً بدراستي:

- هل أخذت الشهادة اليوم؟

كان لا بد أن يثير هذا السؤال شكوكي، إلا أنني وقعت.

- أجل يا بابا.

نهضت، وأحضرت الملف، وأخرجت منه الشهادة ووضعتها أمامه. وأنا أقف بجواره. فتحها أبي، ونظر إليها، ودون أن ينطق بكلمة واحدة صفعتي الصفحة الأولى والأخيرة. كان قلماً قوياً جداً إلى حد أنني طرت إلى الجدار المقابل. ثم، التفت نحوي وأنا أبكي، وقال لي إن مدير المدرسة أبلغه درجاتي السيئة جداً. الآن، لم يكن أبي يستطيع أبداً أن يوقع على تلك الشهادة المزورة، عندئذٍ لجأ إلى حيلة. سكب نصف زجاجة حبر هندي على الشهادة حتى محا تزويري تماماً، وصحبتني في الصباح الباكر إلى المدير وشرح له أنه بينما كان على وشك التوقيع، سكب زجاجة الحبر. ودفعت ثمن ذلك غالياً.

على الرغم من أنني كنت الابن الوحيد، والمدلل جدًا وتقريبًا المعبود، فإنه أرسلني إلى المدرسة الداخلية الأسقفية في أجريجينتو. في كل مساء، قبل أن أنام، كنت أنظر من حجرتي إلى الأضواء البعيدة لبلدتي وأبكي. وفي فترة وجيزة بدأت أعاني من أعراض الهروب. في إحدى المرات اكتشفت طريقًا للهروب كان سيقودني إلى الريف المفتوح، ولكن بينما أتسلق السور الداخلي للمدرسة، سقطت بقوة، وكان لا بد أن يرفعني الحراس. عندئذٍ فكرت في أن ارتكب سلسلة من انتهاكات النظام الداخلي حتى يطردوني. وارتكبت المخالفات، وعوقبت بقسوة، ولكنني لم أحصل على الطرد المرجو. وفي العام التالي أقنعت نفسي بأنني لا بد أن ارتكب تصرفًا مبالغًا فيه، لا يمكن التسامح معه، حتى يُجبر الكهنة، بالفعل، على أن يفتحوا لي الباب لذلك الذي كنت أعده، بالفعل، سجنًا. كان طعام الداخلية قليلًا فعليًا، ولذلك كانت أمي تهتم كل أسبوع بأن ترسل إليّ البيض الطازج، وكنت أنا في ساعة الغداء، أمر أمام المطبخ الكبير، وأسلمه إلى الطباخ. وفي صباح أحد الأيام، أمسكت في يدي بالبيضتين، وبمجرد أن أصبحت في مقدمة الصف الطويل جدًا، وكنا في انتظار دورنا لنجلس إلى الموائد، رفعت عيني ورأيت على الجدار أمامي، تمثال المصلوب الضخم الذي كان يحتل قاعة الطعام. أغمضت عيني، واستجمعت كل شجاعتي، وسددت البيضة الأولى على المصلوب. وأتذكر جيدًا جدًا، أنها أصابته في عينه اليسرى، بعدها على الفور ألقيت بالثانية، وهذه المرة سددها على جذعه. وساد الصمت للحظة وتوقف الزمن. ثم، في صراخ مرتبك من الرعب والغضب، ألقى كل زملائي بأنفسهم فوق ليضربوني بوحشية. كان شيئًا كالإعدام، أنقذني منه الكهنة. بتطبيعة الحال، أخيرًا طردت، ولكنني لمدة أشهر كنت أستيقظ كل ليلة في عرقي مرتعبًا بسبب ما قمت به من تدنيس للمقدسات.

في المدرسة الثانوية لم أكن بين أفضل التلاميذ، إلى حد أنهم أرسلوني للتعليم البدني، ليس لأنني لم أكن أشارك في التدريبات الرياضية القاسية، ولكن من أجل مزحة تعسة وجهتها إلى أحد المدرسين، كان فاشيًا متعصبًا. كان معتادًا أن يحفزني باستمرار في الملعب بتلك العبارة:

- انطلق يا كاميليري! انطلق! اذهب إلى الحصان! هيا اجرِ مئة متر مسطح!  
هيا اقفز من على العارضة!

حتى قلت له في أحد الأيام وأنا منقطع الأنفاس:

- معذرة يا أستاذ، ولكنك أخطأت الفعل.

نظر إليّ مرتبًا ثم سألني: وما الفعل الذي يجب أن أستخدمه؟

فأجبت: مت يا كاميليري، مت!

ونظرًا إلى أنه رجل لا يحب المزاح (17)، غضب بشدة، ولهذا أجل لي السنة الدراسية إلى أكتوبر.

ولكن في الصف الثالث الثانوي حدث لي شيء أكثر خطورة. في صباح أحد الأيام أعلن المدير أننا سننتهي من الدروس في الساعة العاشرة، وأنا سذهب لنقف في شارع أتينيا، الشارع الرئيسي في أجريجتو، لنصق لمرور الأمير الوريث أومبرتو، في أثناء مروره بالسيارة، في زياته للمدينة. وذلك ونحن في خضم الحرب. يقف بجواري صديقي ورفيق الفصل لويجي جيليا، الذي أتفاهم معه بالنظرات أفضل من الكلمات، كنا قد اكتشفنا معًا شعورنا المشترك بفقدان الإيمان بالنزعة الفاشية. ولهذا، وقبل أن تصل السيارة المكشوفة للأمير في تقدمها البطيء جدًا، بجوارنا، تبادلنا نظرة، وفهم كل منا الآخر على الفور. قفزنا نحن الاثنان على حافة السيارة، وصرخنا في وجه أومبرتو:

- خلصنا من موسولينى!

قبضت علينا على الفور قوات الأمن وأخذتنا إلى قسم الشرطة، وهناك وبخنا المحقق بجدية خطيرة، ولكنه أطلق سراحنا. ولكن أتى إلينا مدير المدرسة في اليوم التالي بأنه اقترح طردنا من الحزب الفاشي. وكان هذا يعني دمارنا المدني، فمن دون عضوية الحزب لا يمكننا أن نلتحق بأية مدرسة. لم أجرؤ على أن أحكي أي شيء لأبي. بعد هذا بثلاثة أيام أطلقت صفارات الإنذار الجوي. كان مدير المدرسة قد نظم أنه بمجرد أن تنطلق صفارات الإنذار تخرج فرقة مكونة من عشرة صبية قبل الآخرين لتنظم عملية الإخلاء والذهاب إلى المخابئ. وكان موقعي، وموقع لويجي جيليا أيضًا، في آخر درج مهتز يؤدي إلى مخبأ تحت الأرض. اتخذنا مواقعنا المعهودة إلينا، ولكن حدث أمر لم يحدث قط من قبل. كانت الإنذارات حتى تلك اللحظة إنذارات فارغة، نظرًا إلى أن الطائرات الإنجليزية وتلك الأمريكية كانت تكتفي فقط بأن تحلق فوق المدينة، إلا أنها في تلك المرة بدأت تلقي القنابل، وأندلعت الفوضى في المدرسة. كانت أغلبية الزملاء تسكن في البلدان المجاورة، ولم يكونوا قد تعرضوا لأية عملية قصف من قبل، بخلافي أنا الذي كنت قد رأيت وجه بلدي يتغير بسبب الهجوم المستمر، نظرًا إلى أننا في القيناء لدينا كثير جدًا من السفن الحربية. إذا، سقط الأولاد فريسة للفرع واندفعوا في سباق

يأس لدخول المخبأ، واجتاحوا الفتيات اللاتي رأيتهن من أسفل الدرج يقعن ويدهسن. كان بجواري مقعد من القش، وكمن أصابه مس من الجنون، أخذت ألوح به مهدداً، وأنا أضرب يميناً ويساراً، وبمساعدة لويجي جيليا استطعت أن أوقف الأولاد، وأن أضع بعض النظام، وأخذنا الفتيات القصابات ونقلناهن إلى أسفل. في صباح اليوم التالي، دخل المدير فصلنا، وأعلن أنه لن يطالب بسحب بطاقتينا أنا وجيليا، لأننا تصرفنا بشجاعة محمودة.

وانتهت الدراسة دون أن أضطر إلى الخضوع لامتحان التوجيهية المخيف، الذي ألغوه ذلك العام، نظرًا إلى أن الأمريكيين كانوا قد وصلوا إلى لابميدوزا، وكنا نسمع أصدااء طلاقات مدافعهم.

في أثناء الدراسة الثانوية وضعت لنفسي خطة. كنت أريد أن ألتحق بجامعة فلورنسا، حيث كان هناك أساتذة أحبهم، وقرأت لهم بالفعل بعض ما نشره، ولذلك، ولأتمكن من أن أعيش في تلك المدينة، استطعت، عن طريق أحد أصدقاء أبي أن أعثر على وظيفة صحفي تحت التمرين في الجريدة اليومية «لا ناتزيوتى» (18). ولكن وصول الأمريكيين عام ١٩٤٣ أجبرني على الالتحاق بجامعة باليرمو.

كان حلمي أن أصبح، بمجرد التخرج، «محاضرًا» للإيطالية في إحدى الجامعات الأجنبية الفرنسية. ولكن لا بد في الجامعة أن أحصل على أفضل الدرجات في مادتي الفرنسية والإيطالية. وعندما دخلت امتحان الفرنسية الأول لم تكن هناك أية مشكلة، فحصلت لأول مرة على درجة ثلاثين ومرتبة شرف. واجتزت اختبارات أخرى أيضًا، مثل اختبار الفلسفة، وفي هذا أيضًا حصلت على أعلى الدرجات. وكنت آنذاك أستذكر بأقصى التزام، وبما أن اختبار الأدب الإيطالي كان يتضمن أيضًا نصًا اختياريًا، قدمت «المدائح» الدرامية لفيو بيلكاري (19). ولكنني فهمت، في يوم امتحاني، أن رئيس القسم قد استبدل البروفيسور إيتوري لي جوتي (20) بأستاذ الفيلولوجيا الرومانسية. أجبته إجابات جيدة جدًا عن أسئلته، ثم وصلت إلى «المدائح» وهنا بدأ الفتور، ولم تعجبنى الطريقة التي صاغ بها جوتي السؤال. قال بالنص: «حضرتك بالتأكيد لن تعرف أنه في عام ١٩٣٣ وفي الاحتفال الموسيقي الفلورنسي في شهر مايو، قدمت مسرحية دينية..

قاطعته: أعرف هذا بالتأكيد، قدمت مسرحية معجزة القديسة أوليفا.

- ولكنك بالتأكيد لا تعرف من كان المخرج.

بكل صراحة شعرت بالغضب.

- أجل أعرفه يا أستاذ، أخرجها جاك كابو(21).

- لا تقل لي إنك تعرف أيضًا من كابو.

- للأسف يا أستاذ أعرف. إنه من أكبر المجددين في المسرح العالمي في القرن العشرين. وإذا أردت يمكنك أن أعرض أيضًا نظريته.

ولكن هذه المرة كان هو من غضب. نظر إليّ وسألني:

- لماذا لم يسعدني الحظ إذًا لأرى في محاضراتي جبارًا في المعرفة مثل سيادتك؟

فقدت توازني.

أجبت: يا أستاذ، أنا أعيش على بُعد أربع ساعات بالقطار من باليرمو. أربع ساعات للذهاب وأربع مثلها للعودة، ثماني ساعات من السفر مسافة طويلة للغاية لأحضر دروس حضرتك.

نظر إليّ ببرود وقال:

- حسنٌ، انتهى الامتحان عند هذا الحد، وسأعطيك ثماني عشرة.

ثماني عشرة درجة في الإيطالية تعني نهاية حلمي.

قلت: أرفض هذه الدرجة.

أجاب هو: المرة القادمة التي ستتقدم فيها للامتحان، سأعطيك درجة الرسوب.

نهضت ورحلت دون حتى أن أصفحه. ومنذ تلك اللحظة انتهى اهتمامي بالجامعة. كنت أتردد عليها، بالتأكيد، كنت أمتحن، بالتأكيد، ولكن كانت تكفيني الدرجات الثماني عشرة.

ولكنني في الوقت نفسه كنت أكتب الأشعار والقصص، وعندما بدأت إرسالها إلى مجلات أدبية في العاصمة، وإلى الصحف اليومية، كانت تُنشر كلها. شاركت في مسابقات شعرية من أهم المسابقات مثل جائزة مسابقة سان فينست عام ١٩٤٧، حيث وصلت إلى التصفيات النهائية. وأراد أونجاريتي(22)، رئيس لجنة التحكيم، أن توضع ثلاث من قصائدي في

مجموعة شعرية كان يعدها. كانت هناك توصية لأحصل على جائزة الصحافة الحرة في لوجانو، التي كانت تتكون من لجنة تحكيم موقرة، بها جانفرانكو كونتيني، وكارلو بو، جانسيرو فيراتا(23) وآخرون. ومن بين ثلاثمئة متسابق فاز شاعر صغير جدًا، بيرباولو بازوليني(24)، وكنت أنا من تلاه مباشرة ومعني شاعر آخر واعد، أندريا زانزوتو(25).

كان كابوسي أن أنهي أيامي وأنا أعمل مدرسًا في مدرسة إعدادية أو ثانوية في أجريجينتو. كنت أريد أن أرحل من صقلية، حتى إذا كنت خلال أيامي الجامعية قد عقدت صداقات مع ليو جويدا، ومارشيلو كاراباتزا، وجوزيبي روجيرو(26)، الذين معهم كونًا مجموعة كانت تشارك في كل الفعاليات الفنية والثقافية. في كل يوم سبت كنا نجتمع لنتناقش حتى الصباح في الشعر والرسم والأدب، وخصوصًا عن مستقبلنا. كانت تلك أيام نضوجي الحقيقية.

جاءت فرصتي لأترك الجزيرة عام ١٩٤٧. في ذلك العام أعلنوا في فلورنسا عن مسابقة لفصل مسرحي لم يُنشر، وكان المسرح يشغل اهتمامي منذ شبابي المبكر. اشتركت في المسابقة بعمل عنوانه (العدالة في منتصف الليل). كانت لجنة التحكيم يرأسها الناقد العظيم سيلفيو داميكو(27)، وعهد إليّ بالجائزة الأولى مناصفةً. ذهبت إلى فلورنسا لأستلم الجائزة، وفي أثناء رحلة العودة في القطار قرأت من جديد عملي. وجدته بالتأكيد متوسط المستوى، وتساءلت مدهوشًا لماذا منحوني الجائزة، ثم أقيت به من النافذة. إلا أنه بعد ذلك بشهر، وصلتني رسالة من الأكاديمية الوطنية للفن الدرامي في روما التي كان يرأسها سيلفيو داميكو نفسه. كتب لي أنني إذا كنت مهتمًا بالمسرح حقًا، يمكنني أن أتقدم لأؤدي امتحانات دارس الإخراج، وإذا حصلت على درجات مرتفعة يمكنني أن أحصل على منحة دراسية ثمينة. التقطت الفرصة على الفور، تلقيت شروط المسابقة، واخترت المسرحية التي سأكتب عنها شيئًا مثيرًا لبحث التخرج، الذي يقدم أفضل طريقة لتقديم النص على خشبة المسرح. اخترت مسرحية هكذا الأمر (إذا بدا لك) لبيرانديلو، وتقدمت ببحث ضخم ملحق به خطة الإضاءة واسكتشات السينوغرافيا وأشكال الأزياء. وفي سبتمبر من عام ١٩٤٩ استدعوني إلى روما لأؤدي الامتحان. وكنا ثلاثين متقدمًا إلى امتحان الإخراج. كان امتحاني مع أستاذ الإخراج اوراتسيو كوستا(28)، وكان شيئًا كالتحقيق أمام محاكم التفتيش. وفي النهاية قال لي كوستا برود:

- لتعلم أنني لا أتفق مع أي شيء قلته في أثناء حوارنا.

نهضت وصافحته، واستأذنت من داميكو، ومن الأساتذة الآخرين وانصرفت. كانت عبارة مغزاها واضح بأن كوستا لن يأخذني أبدًا لأكون من تلاميذه، ولهذا، ولكي أستمتع ببعض الأيام في روما، تركت الفندق حيث أقمت، وطلبت من أحد أقاربي أن يستضيفني. قضيت ثمانية أيام في غاية الجمال، ثم حانت الساعة لأعود إلى صقلية. وفي اليوم السابق لقطاري جاءني الهاجس بأن أمر على الفندق حيث أقمت في البداية، وهناك وجدت ثلاث برقيات يائسة من أبي يخبرني فيها ويكرر أنني نجحت في الامتحان وأني قبلت في الأكاديمية وربحت أكبر منحة دراسية. أدركت برعب أن الدراسة في الأكاديمية بدأت بالفعل منذ أربعة أيام، وبالتالي أسرع إلى هناك. قلت للفراش:

- أنا كاميليري، تلميذ الإخراج الجديد، لا بد أن أذهب إلى فصل الدكتور كوستا.

نظر إليّ وأجابني:

- كوستا غير موجود.

أنا:

- من إذن يقوم بالتدريس؟

هو:

- ولمن يجب عليه أن يعطي هذا الدرس؟ لقد قبلك أنت فقط! انتظر سأتصل به هاتفياً وسأخبره أنك أخيراً ظهرت.

اتصل ثم قال لي:

- انتظر، سيحضر كوستا خلال عشر دقائق.

بمجرد أن وصل كوستا أخذني إلى الفصل الضخم، جلست أمام مكتبه، وكان سؤاله الأول هو:

- لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

- يا دكتور، سيادتك في الامتحان وأنت تصافحني قلت لي عبارة لا تسمح بأية إساءة فهم.

- أي؟

- قلت لي إنك لا تتفق مع أية فكرة من أفكاري، وبالتالي استنتجت أنا النتيجة المنطقية.

نظر إليّ وقال لي:

- كوني لا أتفق مع أفكار شخص ما، عندما تكون حادة وذكية، لا يعني في الواقع رفضها، بل على العكس.

وهكذا أصبح كوستا معلمي الأوحده والوحيد، ليس فقط معلمي في الإخراج، ولكن في الحياة أيضًا.

لم يكن يبلغ من العمر الأربعين بعد، طويل القامة، وشديد الأناقة والثقافة، ولكنه كان باردًا مثل قطعة الثلج. في كل صباح يرسله الله إلى الأرض كنا نجلس أحدنا أمام الآخر لندرس نصويًا لإسخيلوس وشكسبير، كنا نشرحها ونحللها من كل وجهات النظر. علمني حقًا كيف أقرأ وأفهم بعمق الكلمات التي أقرأها. وهكذا ببطء غيّر اتجاه مخي من الشعر إلى المسرح. لم أكن بعدها قادرًا، لأعوام، على كتابة بيت شعر واحد ولا حتى قصة قصيرة. وفي نهاية العام أعطاني كوستا عشرًا في الإخراج، لم يكن قد أعطها قط من قبل لأحد، ولكنني بعدها ببضعة أشهر طردت من الأكاديمية بسبب سلوك غير أخلاقي: فاجؤوني وأنا نائم مع إحدى التلميذات. أوراتسيو، رجل ذو أخلاق حديدية، إلا أنه أرادني أن أعمل مساعد مخرج في فرقته.

إذا كنت أحكي لك تلك الحكايات لأنني أريد أن أشرح لك أنني لم أكن قط سهل الطباع، وكان الخضوع لأي نوع من النظام، أو أن ألتزم الصمت عندما يكون لدي شيء لأقوله، وألا أتمرد أمام ما أعتقد أنه أمرًا خاطئًا كان بالنسبة إليّ شيئًا مستحيلًا ولم يكن جزءًا من طباعي.

ونظرًا إلى أنني فقدت المنحة الدراسية، وجدت نفسي مضطرًا إلى أن أعيش هكذا، حياة الجري وراء المصلحة. سأحكي لك مثالًا يشرح الكل: صديق لي قدمني إلى منتجين سينمائيين مهمين من أصول يونانية، موسكو وبوتيسوس، وكانا قد أسسا في روما شركة إنتاج وتوزيع كبيرة، شركة منيرفا للأفلام (29). وعندما عرف أنني بحاجة إلى العثور على عمل، عرض عليّ موسكو، بكرم، عملاً. وكان الأمر يتعلق بقراءة مشاريع الأفلام التي تصل إلى بيت الإنتاج، وأن أصنفها وأقدم إليهما فقط ما أعتقد أنه مهم بعض الشيء. وفي نهاية أول شهر من العمل، استدعاني في مكتب بوستيسوس. قال لي إنه راضٍ جدًا

عن التزامي ولهذا سيعطيني الراتب على الفور. ولدهشتي الشديدة، أخرج من درج مكتبه خمس لفافات من سجاائر لافي سترايك، وأعطاه لي. سألته بتعجب:

- ماذا يجب عليّ أن أفعل بها؟ أدخنها؟

- هذا أجرك. يمكنك أن تحولها إلى نقود مع من يبيعون السجاائر المُهربة في محطة ترميني (30).

فعلت هذا. ولكن بطبيعة الحال لم يعجبني نظام الدفع هذا وبحثت عن عمل آخر. وصلني عرض جديد تحمست له في البداية. كان الأمر يتعلق بأن أعمل مساعد مخرج للويجي زامبا (31) الذي كان يصور فيلم **محاكمة المدينة (32)** مع ممثل مشهور في تلك الفترة هو أماديو نتزاري (33). كان زامبا رجلاً متسلطاً وبغيضاً جداً. الوظيفة الوحيدة التي عهد إلي بها كانت أن أبتاع له من حين إلى آخر علب سجاائر. في نهاية الأسبوع أخذت الراتب المتواضع ولم أعد مرة أخرى.

كنت أتغذى على الكابوتشينو والبريوش، ونظرًا إلى أنني كنت نحيفًا بطبيعتي، أصبحت شديد النحافة. ولمدة شهر آخر أخذت مكان أحد بائعي الكتب المستعملة في إحدى موائد بورتا بيا (34). عمل آخر عرضه عليّ المخرج الشاب فرانشيسكو روزي (35) الذي كان يعمل كمساعد لرافاييلو ماتاراتزو (36)، المتخصص في الأفلام المُبكية، بصفة عامة، مع أماديو نزاري (37). وإيفون سانسون (38). عرض عليّ روزي أن أذهب وأظهر في مدينة السينما في هذه الأفلام.

بدأت هكذا أربح شيئًا ما، ولكن عندما عرف ماتاراتزو أن بين الكومبارس يوجد تلميذ أكاديمية سابق للإخراج، لم يكن يريد أن يراني مرة أخرى في موقع التصوير. ولم أفهم قط لماذا.

لم يكن لديّ أي شعور بأنني ضحية، فقد كنت مثل أقراني الكثيرين الذين ينتقلون من عقل إلى آخر في انتظار أن يصلوا إلى الطريق الذي يطمنونه. كان فولكنر (39) يبيع الشطائر، وستاينبيك (40) يعمل كحارس عقار ليلاً، وبقراءة السير الذاتية للأمريكان اكتشفت أن منهم من عملوا كبائعي صحف وبائعي هوت دوج، ولم يكن هذا بالنسبة إليهم ضالة ثقافية ولكن ثراء في الخبرة.

كانت روما مدينة رائعة، مفتوحة للقاءات، وكان الأشخاص يعرضون صداقتهم بسهولة والعمل أيضًا إذا كان هذا ممكنًا. لم أكن أستطيع أن أصدق

أنني استطعت أن أرحل من صقلية، إلا أنني وجدت نفسي أحلم بكرات الرز الصقلية (41) الشهية التي كانت تعدها جدتي إيلفيرا ببراعة، أو صينية المكرونة في الفرن التي تعدها أُمي.

في أحد الأيام قابلت بالصدفة ساندروداميكو (42)، رئيس محرري موسوعة العروض العظيمة، التي أسسها وأدارها سيلفيو أبوه. كان يعرف أنني كنت أعرف حق المعرفة المسرح الفرنسي للقرنين التاسع عشر والعشرين، وأني كنت تلميذًا نجيبًا للمسرح الإيطالي المعاصر. هكذا عرض عليّ أن أشارك في تحرير الموسوعة كمتخصص في تلك المواد. وهناك تعرفت إلى كيكو بافولينيني (43)، رئيس المحررين في قسم السينما، الذي سرعان ما دعاني إلى التعاون معه، وكان ابن أخي أليساندرو بافولينيني، ولكنه كان مختلفًا تمامًا عن عمه، حتى إنه صار بالنسبة إليّ أخًا، وهكذا بعد بضعة أشهر قررنا أن نسكن معًا.

إلا أن الراتب كان ضئيلًا جدًّا، كان لا بد أن أكمله بطريقة ما، وأتى لندجتي صديق آخر، جوفاني كاليندولي (44)، الذي كان يدير آنذاك المجلة المسرحية «سيناريو». كنت أوقع مقالاتي كمراسل خاص من باريس وأهتم بأحدث أخبار المسرح الفرنسي. في الواقع لم أنتقل من روما، كنت أكتفي بأن أقرأ مقالات النقد المسرحي من الصحف الواردة من وراء الألب، ومنها أستخلص المواد الخاصة بمقالاتي. سمح لي التعاون مع هذه المجلة بأن أتمكن من أعيش بهدوء بعض الشيء، ولكن كاتت لدي كاليندولي طموحات أخرى. في الواقع، بعد فترة استطاع أن يؤسس فرقة مسرحية على مستوى جيد، كان لها مقر مستقر في مسرح بيرانديلو - ثم مسرح توردينونا - وكانت ستقدم فقط كل ما هو جديد من المؤلفين الإيطاليين. كان يريد أن أفتح أنا الموسم، وهكذا بدأت في تجريب مسرحية لراوول ماريادي أنجيليس (45)، كاتب معروف جدًّا آنذاك، بعنوان «ذهبنا في رحلة». واستقبل النقاد في روما - الذين مثلهم في تلك الفترة مثقفون مثل داميكو وكونتيني (46)، دي فيو (47) وبروسبيرى (48) - بمدح إخراجي، وهكذا عام ١٩٥٣ بدأت مستقبل المهني في المسرح. كنت مقتنعًا أن هذا سيكون طريقي، ولكن في بعض الليالي، تقريبًا في الخفاء، حتى عن نفسي، كنت أجد نفسي أكتب قصائد الشعر، ثم أنسى كل شيء عنها في صباح اليوم التالي.

وكان في أثناء البروفات لمسرحيتي الأولى تلك أن حدث لقاء ترك أثره إلى الأبد في حياتي. قدمت إليّ صديقة فتاة كانت قد انتقلت من ميلانو إلى روما، وكانت قد تخرجت في جامعة لا سببينزا برسالة عن بيكو ديلا ميراندولا (49). كان اسمها روزيتا ديلا سيستو (50). قالت لي صديقتي إن

روزيتا تريد أن تتابع إعدادي للعرض وإنها مستعدة لمساعدتي إذا احتجت. بدأت روزيتا تتابع البروفات، ولكن بعد بضعة أيام أدركت أن عالم المسرح وقواعده كانت بعيدة تمام البعد عنها. في مرة أو اثنتين عندما طلبت منها مساعدتي بوضوح في المؤثرات الصوتية والخاصة بالضوضاء ارتكبت كوارث، ولم أطردها لأنني كنت أراها لطيفة جدًا على نحو غريب، ولأن وجودها كان يسبب لي السعادة. وبعد أن قدمنا العرض رحلت لأقضي شهرًا لدى أبوي في صقلية. وبعد أن مر أسبوع، أدركت بدهشة شديدة أنه لم يمر يوم دون أن أفكر في تلك الفتاة. لم أكن أستطيع بكل صدق أن أشرح الأسباب، ولكن كان هناك شيء وحيد مؤكد: في كل مساء، وقبل أن أنام، كانت تظهر أمام عيني صورتها المبتسمة. كان لدي رفيقا طفولة، صديقان حقيقيان ومخلصان، وحكيت لهما تلك الظاهرة الغريبة التي تحدث لي.

لا بد أن أعترف لك أنني حتى تلك اللحظة كنت أعبر من فتاة لأخرى بسهولة شديدة. وكانت إجابة صديقي إجابة بسيطة بساطة بدائية: لقد وقعت في الحب.

وفي الأيام التالية من إجازتي في صقلية استطعت أن أتأكد من صحة هذه الإجابة. وهكذا، بمجرد أن عدت إلى روما، اتصلت بها ودعوته إلى العشاء، ووافقت.

منذ تلك الليلة تعشينا معًا لأكثر من ستين عامًا. ولكن عن هذا سأعود لأحدثك بعد قليل.

كما قلت في البداية، كنت قد أصبحت اشتراكياً في أعوام الفاشية. وبمجرد أن انتهت الحرب تقوّت أفكارى السياسية، وعندما انتقلت إلى روما وضعت نفسي تحت إمرة الحزب. وكان قد انتقل أيضًا إلى روما صديقان قديمان من صقلية، ليو جويدا وجاسباري جوديتشي (51)، وكانا يعملان من أجل الحزب. كان جاسباري محرر المجلة الأسبوعية «الطرق الجديدة» التي كان يديرها رئيس الحزب الاشتراكي الإيطالي لويجي لونجو (52)، شخصية أسطورية. وحدث لي عندئذ أن كتبت بضع مقالات غير موقّعة للمجلة. في ذلك الوقت قرر ستالين أن يلغي الـ comintern، وهي الهيئة الإدارية لكل الأحزاب الاشتراكية في العالم، وأن تحل محلها هيئة الـ cominform، أي هيئة مختصة فقط بالمعلومات. كانت الهيئة تنشر مجلة أسبوعية عنوانها «من أجل سلام مستقر ومن أجل ديموقراطية شعبية»، كان يتعاون معها اشتراكيون من كل الدول. كل أسبوع كانت تُطبع على الأقل بستين ترجمة، كان شيئًا مثل الإنجيل. وفي أحد الأيام طلب لونجو من جاسباري جوديتشي ومني أن

نكتب مقالات عن قناة فولجا دون، عملاً جماهيريًا عظيم الشأن للسوفييت. قال لنا رئيس تحرير المجلة ليبيرو بيجاريتي (53) أن نكتب مقالاتنا بأكثر طريقة روائية ممكنة لأن لديه النية أن يؤهلنا لتعمل كمراسلين متخصصين. ذهبنا إلى السفارة السوفييتية، وحصلنا على المواد التقنية الضرورية وبدأنا في الكتابة، مخترعين لقاءات ومواقف، وحوارات من خيالنا الصرف. نُشر كل شيء في ثلاث مقالات. بعد شهر، وبدهشة عارمة، أدركنا أن المقالات قد أُعيد نشرها بوضوح شديد في المجلة الأسبوعية للهيئة الاشتراكية للمعلومات، وبهذا تحولت خيالاتنا إلى حقيقة في البلاد الستين وأكثر التي تُنشر فيها المجلة. أتذكر أننا نظرنا أحدنا إلى الآخر بياس وتساءلنا: ألا يمكن أن تكون باقي المقالات أيضًا ليست سوى ثمار بعض الخيال؟ وهذا الاحتمال ألقى بنا في أزمة عميقة.

وفي إطار نشاطي أيضًا مع الحزب، عام ١٩٥٠، أرسلوني إلى جنوة لمتابعة الأولمبياد الثقافي للشباب. وهناك سئلت لي الفرصة أن أتعرف إلى كبار المثقفين الإيطاليين، من ماسيمو بونتييمبيلي (54) إلى جالفانو ديلا فولبي (55)، ومن سيبيللا أيرامو (56) إلى جاكومو ديبينديتي (57)، وربحت أيضًا جائزة الشعر بشعري الغنائي المعنون **موت جارسيا لوركا**. وبعد فترة ابتعدت عن الحزب، ولم أجد العضوية.

عدت وطلبتها، وحصلت عليها عندما تعلق الأمر بالاشتراك في غزوات مدنية كبيرة لبلدنا، كالطلاق والحق في الإجهاض. منذ ذلك الوقت بقيت اشتراكيًا فترة وجود الحزب كلها، ولكن عندما غيّر الحزب اسمه في إيطاليا وأصبح الحزب الديموقراطي اليساري، لم أنضم، كما لم أنضم قط إلى الحزب الديموقراطي، ولكنني ظللت دائمًا اشتراكيًا بروحي. من المؤكد، يا ماتيلدا الغالية، ظللت اشتراكيًا بطريقتي، لأنني لا يمكنني ألا أعتز بالأضرار والبشاعات التي ارتكبتها اشتراكية ستالين.

خطبت روزيتا رسميًّا، بل ووصلت إلي أن أطلب يدها رسميًّا من أندريا أبيها، وكان لقاءً غير عادي، وفيه، بكل أمانة، لا أعرف من منا كان محرّجًا أكثر. قررنا أن نتزوج مبكرًا، ولكن للأسف أجبرنا الموت المبكر لأبيها أن نؤجل بضعة أعوام. وحان يوم الزواج، ولا بد أن أعتز لك أن الليلة السابقة للزواج كانت حرفيًّا ليلة بشعة. كانت شخصيتي مقسومة إلى اثنين. كان أندريا رقم واحد يقول لي: اسمع، لن تكون أبدًا زوجًا صالحًا، ولن تكون قادرًا على أن تكون رجلًا مخلصًا للكلمة التي ستعد بها، ما زال أمامك بعض الوقت، ارتد ملابسك بسرعة، وخذ أول قطار واخف آثارك. وكان أندريا الثاني يقول لي: ولكن هل أصابك الجنون؟ كان الزواج اختياريًا الحر، أنت في أحسن حال مع

روزيتا، وهي المرأة الوحيدة التي تستطيع أن تتزوجها، لماذا تتصرف بحماقة؟ ولم أستطع أن أغمض عيني.

عندئذ كنت قد صنعت بدلي عند ترزي، الذي لا أعلم لماذا، فصل لي سترة كتفيها ضيقتين جداً. أوصتني روزيتا: بدلة الزواج، أرجوك، لتصنعها عند ترزي آخر.

ولكنني عدت إلى الترزي نفسه. وفي ذلك الصباح ارتديت ملابسني وأدركت مرتعّباً أن الترزي قد تفوق على نفسه، أي إنه قص لي الكتفين على مقاس طفل، وكانت السترة ضيقة جداً. وتقدمت إلى روزيتا التي كانت ترتدي بالفعل فستان الفرح، وكان يقف بجانبها والدي. بمجرد أن رأته روزيتا قالت لي: هل ترى ما حدث؟ لم ترغب في أن تصغي إليّ وحاك لك الترزي الكتفين ضيقتين جداً.

عند سماعي لتلك الكلمات كدت أجن، وكل توتر الليلة السابقة أصبح متفجراً. صرخت فيها:

- إذن اختاري زوجاً ذا كتفين عريضتين!

وخلعت السترة وألقيت بها في وجهها، في حين أسرع أبي بتقبيل يديها قائلاً لها: سامحيه، سامحيه!

لم تحرك روزيتا رمشاً، تقدمت خطوة إلى الأمام، وشفعتني على وجهي. كانت الصفعة الوحيدة التي أعطتني إياها، ولكن كان تأثيرها رائعاً، لأننا بعدها بلحظة عندما نظر كل منا إلى الآخر أخذنا نضحك ونضحك حتى الدموع، وكانت كل الاحتفالية في الكنيسة عبارة عن ضحك متواصل. ومن بين الأشياء التي حدثت، أنه في لحظة تبادل الخواتم، استطاعت روزيتا وهي تضحك، ودون أن تنتبه أن تضع خاتم الزواج الخاص بي، ليس في إصبعي، ولكن في إصبع الكاهن، الذي عاد على الفور إلى الورا، مذعوراً، وصاح:

- لا، ولكن أنا لا! أنا لا!

وبعد الزواج بتسعة أشهر وُلدت أول ابنة لنا أندريينا، جدتك، ثم الابنة الثانية إيزابيتا، وفي النهاية الثالثة ماريولينا.

أريد أن أوضح شيئًا: لم أشعر بأي إحباط أن مولودي الأول كان فتاة، لم يهمني قط أن يكون لديّ وريث ذكر. بل وأقول أكثر من ذلك، كنت في قرارة نفسي سعيدًا، وتكررت سعادتي نفسها تمامًا بميلاد ابنتي الآخرين.

كانت روزيتا قد تخلت عن أن تقدم في امتحانات التدريس، وفضلت أن تنضم إلى المعهد الأهلي لمساعدة المرضى (58)، حيث استطاعت أن تتقدم بسرعة مهنيًا وأصبحت مديرة. ولكن كان يلزمنا في المنزل مزيد من النقود، وهكذا تقدمت في مسابقة عام ١٩٥٥ للالتحاق بوظيفة في هيئة الراديو والتليفزيون الإيطالي RAI.

كان المتسابقون من كل إيطاليا عشرة آلاف متسابق. نجح في الامتحانات الكتابية مئة وخمسون. تقدمت إلى الامتحانات الشفاهية في روما، وكان يرأس اللجنة أحد أكبر مؤرخي المسرح والأدب، الأستاذ ماريو أبولونيو (59). كان هو من قام بحوار طويل معي حول موضوع كنت قد قدمته، وفي النهاية نهض وشد على يدي وقال لي، بالحرف:

- سعدت كثيرًا بمعرفة حضرتك. أعتقد أنني أترجم أفكار اللجنة عندما أعلن لك أننا سنتقابل قريبًا في ميلانو في الدورة التدريبية.

اتصلت بروزيتا في مكتبها، وأنا في غاية الفرح، لأزف لها الخبر السعيد.

ولكن بالمصادفة اتصل بي في ذلك المساء نفسه، من ميلانو، أوراتسيو كوستا. كان يجهز لعرض على المسرح الصغير مسرحية لدييجو فابري (60)، وكان عنوانها **محاكمة يسوع**. قال لي إنه غير مرتاح مع مساعد المخرج الذي عينوه له. ونظرًا إلى أنه كان ما يزال هناك خمسة عشر يومًا على بداية العرض، كان يرجوني أن ألحق به في ميلانو لأساعده. أحبته بأنني اجتزت منذ قليل امتحان موظفي الإذاعة والتليفزيون الإيطالي بنجاح، وأتوقع أن يدعوني بعد قليل، ولذلك قأنا مجبر على أن أرفض عرضه. بعد أسبوع تلقيت مكالمة هاتفية غريبة من أوراتسيو، يقول فيها إنه تقابل مع أبولونيو، الذي أخبره أنني للأسف، بناءً على رغبة رئيس هيئة الإذاعة والتليفزيون، لم أقبل في الدورة التدريبية واستبعدت. وهكذا، وبشعوري الشديد بالإحباط، قلت لكوستا إنني سألحق به في ميلانو لأساعده.

بعدها بيومين، ذهبنا أنا وكوستا لنتناول العشاء مع دييجو فابري، وسألني الأخير لماذا لم يقبلوني في الإذاعة والتليفزيون. أحبته بأنه ليس لديّ أدنى فكرة. عندئذ نهض هو من المائدة وذهب ليتصل ببير إيميليو جينارينى (61)، الذى كان نائب الرئيس فى اللجنة المقررة، ودعاه إلى العشاء فى الليلة

التالية. باختصار، في الليلة التالية، شرح لنا جيناريني، وهو في غاية الخجل، أنني قد استُبعدت لأن المعلومات حول موقفي السياسي، التي تُطلب كما يحدث لكل المتسابقين، كانت تقدم شخصية اشتراكي عنيف وخطير. وكان المصدر مشيرًا من ضباط بلدي. التفت كوستا وفابري نحوي مدهوشين:

- ولكن لماذا، هل أنت اشتراكي؟

سألني أوراتسيو.

لم أكن أريد أن أستغل الوضع ولم أقم بدور الضحية، وبداء لي أن حلم دخولي الراي قد تبخر إلى الأبد.

بعد ذلك بثلاثة أعوام، عند عودتي من بيرجامو، حيث قدمت على المسرح أوبرا غنائية، استدعاني شيزاري لوبو(62)، مدير البرنامج الإذاعي الثالث. فكرت في أنه استدعاني لأقوم ببعض الإخراج للراديو، ولكنه سألني إذا كان يمكنني أن أحل محل الموظفة المسؤولة عن برامج النثر، في أثناء إجازتها للوضع، وكان الأمر يتعلق بتعاقد مدته ستة أشهر. وافقت بكل حماس، ولكنني شعرت بواجبي أن أضيف:

- لكن يا سيادة المدير، في المسابقة التي دخلت فيها منذ ثلاثة أعوام، لم يأخذوني كموظف لأنني اشتراكي. وأنا كذلك حتى الآن.

نظر هو إليّ قائلاً:

- ومن يهمله هذا.

كان تفسير هذا التغيير في السلوك بسيطاً جداً، كان رئيس الهيئة قد تغير، وهو منصب كان يشغله في فترة امتحاني المهندس فيليبرتو جوالا(63)، الذي أصبح بعدها راهباً ممتنعاً عن الكلام، وحل محله رجل ميوله أكثر تحرراً هو الدكتور مارشيللو رودينو(64). ولكن حذرني شيزاري لوبو، قبل أن يتركني أذهب قائلاً:

- احترس، فمن يدخل هيئة الإذاعة والتلفزيون الإيطالية يخرج منها بصعوبة.

كانت نبوءة سهلة. فالتعاقد الذي مدته ستة أشهر، جُدد لستة أشهر أخرى، ثم عام، ولأختصر عليك، وصلت إلى سن المعاش وأنا ما زلت أعمل في هيئة

الإذاعة والتلفزيون، وتقريبًا كنت أتولى دائمًا مهامًا تعجبنى كثيرًا. أتعرفين يا ماتيلدا، هذا الثبات في العمل هدأني كثيرًا، ومنحني الإمكانية للعثور على استقرار ما، وهذا ساهم في تخفيف تبدلات مزاجي. ولكن من المؤكد لم يكن العمل وحده هو السبب.

كنت رجلًا محظوظًا. وإذا كان زواجي قد استمر طويلًا، فيرجع ذلك في الأساس إلى ذكاء وتفهم وصبر روزيتا. لم تتغير علاقتنا قط بسبب أي حدث خارجي. سأكشف لك سرًا: ولادة ثلاث بنات، وواقع أن في الشقة المجاورة كانت تعيش الحماتان، وكانتا بطريقة معجزية صديقتين، أدى إلى أنه في لحظة ما صار لدينا أنا وروزيتا وقت قليل جدًا لنمكث معًا وتبادل الأفكار والآراء. عندئذٍ لجأت أنا إلى حيلة. دون أن أقول أي شيء لأحد أجرت شقة صغيرة، وفرشتها، ثم نقلت الخبر إلى روزيتا، وكنا نتقابل بعض ساعات الظهيرة هناك، ثم نتقابل من جديد في ساعة العشاء كأننا لم نلتق منذ ساعة الغداء.

كانت روزيتا العمود الفقري لوجودي وما زالت. عندما كنت أعمل مخرجًا مسرحيًا كنت أهتم برأيها أكثر من رأي النقاد، ولا يوجد سطر نشرته لم تقرأه هي. تبعت دائمًا نصائحها الذكية والثاقبة، إلى حد أنني كنت مضطرًا إلى إعادة كتابة عشرات الصفحات من رواياتي.

وفي لحظة ميلاد البرنامج الثاني التلفزيوني، استدعيت لأشارك في ذلك من قبل المدير أنجيلو رومانو(65)، وهكذا أنتقلت من الراديو إلى التلفزيون لأعمل مندوب الإنتاج، أي المسؤول عن برامج معينة، وبدأت بالمسرحيات الثماني الأولى، في ذلك الوقت، بالأبيض والأسود، لإدواردو دي فيليبو(66). وتلت ذلك العمل الأول أعمال أخرى كثيرة، من بينها الروايتان اللتان تحولتا إلى عمليتين تلفزيونيين، **ابنة القائد لبوشكين ولويزا سانفيليشي**، التي كتبت خصيصًا للتلفزيون. بالإضافة إلى ذلك أنتجت تجربة صعبة للغاية: إخراج بعض الأعمال لما يسمى «مسرح العبت»، ما معناه أعمال بيكت، بينتر، آداموف، يونسكو. وأكملت طوال حياتي مستقبلي المهني في هيئة الإذاعة والتلفزيون الإيطالية أخرج، سواء للراديو أم للتلفزيون.

في ذلك الوقت، أرادني أوراتسيو كوستا، الذي ترك منصب رئيس قسم الإخراج في الأكاديمية الوطنية للفن الدرامي، خليفة له. في الحقيقة شعرت بالدهشة الشديدة. خلال أعوام تدريسه كونه أوراتسيو مخرجين ذوي موهبة عظيمة، مثل ماريو فيريرو وجاكومو كولي(67)، المخلصين جدًا لرؤيته للمسرح. أوراتسيو كان تلميذًا ومساعد مخرج لجاك كوبو، الذي كان لديه عن

المسرح مفهوم يكاد يكون دينيًا، وفي لحظات أخرى متصوفاً. ولكن كانت أفكارى أنا علمانية جداً، أي إنني، بين كل تلاميذ كوستا كنت الأقل إخلاصاً، ولهذا فكرة أن يعينني خليقة له أدهشتني كثيراً. خلال الأعوام التي أصبحنا فيها صديقين كان يتردد على منزلي، إلي حد أنه كان الأب الروحي في حفل معمودية ابنتي الأولى، وكان كل منا يقدر الآخر بشدة. لم أجرؤ قط أن ألغي بيننا صيغة الاحترام، على الرغم من أنه دعاني كثيراً لأفعل ذلك. عندما طلبت منه أن يشرح لي الأسباب التي لأجلها أرادني أن أكون تالياً له، ومن خلال استعراضه ذاكرة غير عادية، ذكرني بالعبارة التي قالها لي في لقائنا الأول منذ أعوام كثيرة مضت.

- كوني لا أشارك شخصاً آخر في أفكاره لا يعني أنه أقل ذكاءً، أو أقل حماساً.

وهكذا ولمدة ستة عشر عاماً درّست الإخراج والتمثيل. وهنا أريد أن أتحدث قليلاً عن منهجي. كان فصل الإخراج يستمر ثلاث سنوات، والأماكن المتاحة في العام الأول فقط ثلاثة. إذاً كان أقصى عدد تلاميذ يمكن أن أصل إليه هو تسعة للأعوام الثلاثة. ولكن نظراً إلى أن الامتحانات كانت صارمة جداً، كثيراً ما كان يكون لدي أقل من تلميذين، أو واحد فقط. لماذا كنت متطلباً إلى هذا الحد؟ لأنني كان لديّ دائماً مفهوم عال جداً في ما يتعلق بالإخراج المسرحي. لم أصدق قط في الإبداعات الإخراجية العبقريّة، ولا حتى في الألعاب النارية الاصطناعية التي يمكن أن تُخلق بسهولة على خشبة المسرح. بالنسبة إليّ النص المسرحي هو كل شيء. وكان الفهم النقدي للنص هو القاعدة الأساسية والجوهرية للإخراج المستقبلي، ولعرض النص على خشبة المسرح. كنت إذن أريد من التلاميذ، حتى إن لم يكونوا مثقفين جداً، أن تكون لديهم أفكار صلبة مُقنعة عما يقولونه بشأن النص الذي اختاروه للامتحانات. كنت أعمل على أن يكونوا بالفعل مجبرين على تقديم تحليل دقيق جداً، وأن يهتموا بتقديم ما نسميه «الأجزاء الداعمة»، بما في ذلك البيبلوغرافيا، لتطوير نصوصهم. وبمجرد أن يجتازوا الامتحانات كنت أنا أحاول إلى أقصى حد أن أفهم شخصية التلميذ الذي أمامي، إدراكه المعرفي ونواياه، والطريقة التي بها يواجه ويقراء النص. وإذا اقتنعت أن التلميذ هو أيضاً مقتنع بأفكاره الخاصة، لم أكن أحاول أن أقوده إلى أفكارى، ولكنني كنت أحاول قدر استطاعتي أن أساعده على تطويرها والتعمق فيها. كنت أتمنى من التدريس ألا يُنتج تلاميذ جيدين يتحمسون بإخلاص لمنهجي في فهم المسرح والنص، ولكن شخصيات مستقلة. على مدار السنين حاولت أن أتحدى ثبات أفكارهم لأرى قدرتها على المقاومة، مستعداً لأن أراجع وأن أضع تحت إمرتهم كل معرفتي وخبرتي، من أجل أن تصل مفاهيمهم إلى شكل متكامل. كان هذا أساس تدريسي، تدريسيّاً قائماً على الحرية.

وأفتخر بأنه كان لديّ تلاميذ أصبحوا مخرجين نالوا عن استحقاق الشهرة والتقدير.

إذا أردت أن أضع تقييمًا نهائيًا لتدريسي، أدرك مدهوشًا أن على مدار الزمن تخرج فيه كتاب أكثر من المخرجين أو الممثلين.

لقد رأست أيضًا قسم إدارة التمثيل في المركز التجريبي للسينما لمدة خمسة أعوام متتالية، منذ عام ١٩٦١ إلى عام ١٩٦٦، ومن هنا أيضًا حصل على الشهادة مخرجون أقدّر أعمالهم اليوم كثيرًا. كنت أدرسي للتلاميذ المخرجين كيف يمكنهم أن يحصلوا من الممثل على ما يتمنون، لأن المخرج السينمائي، كان لديه آنذاك الميل إلى أن يعد الممثل كأى عنصر من عناصر المشهد. تركت المركز التجريبي لأنني كنت مثقلا بعلمي بين الأكاديمية وتليفزيون الراي.

بعد هذا بعامين انفجرت ثورة ١٩٦٨، وكان عام المطالبات على كل المستويات. كان الشبان الثائرون يريدون مجتمعًا مختلفًا، المساواة بين الرجل والمرأة، احترام الحريات الفردية، نسيجًا اجتماعيًا فجواته أقل. وهكذا في أحد الأيام حضرت إلى منزلي مجموعة من تلاميذ المركز، يرأسهم أحد أكبر الممثلين في ذلك الوقت جانماريا فولونتيه (68). كان تلاميذ المركز قد تمترسوا داخل المدرسة وطردها جميع المدرسين. وعقدوا مجلسًا ليستدعوا الأساتذة الذين يفضلونهم، وكان اسمي أول اسم والثاني كان داريو فو (69). شعرت بالفعل بالفخر من هذه الدعوة وقبلت. في اليوم الأول لدخول المركز كان يجب أن أجتاز نقاط تفتيش عديدة ومتاريس الشرطة. وفي مدخل المدرسة كانت توجد على الجدار ساعة ضخمة لم تكن تشير فقط إلى الساعات ولكن أيضًا إلى بداية ونهاية كل درس. الشيء الأول الذي رأيته في أثناء دخولي كان الساعة المسكينة مقلوبة وملقى بها في أحد الأركان، واستبدلت صحيفة حائط بها. دخلت فصل الإخراج وهناك وجدت تلميذين أو ثلاثة نائمين بداخل حقائق النوم، لم أرغب في إزعاجهم وذهبت إلى فصل آخر، ولكن بعد أن كتبت على الصحيفة المعلقة أن كاميليري وصل وهو مستعد لإلقاء الدرس لم يحضر أحد. عندئذٍ من خلال الصحيفة أعلنت أنني في صباح الغد في الساعة التاسعة سأبدأ دروسي. وفي اليوم التالي ظهر التلميذ الأول في الساعة الحادية عشرة، وكنت أنا قد انتهيت من تدخين علبة سجائر في أثناء الانتظار. تحدثنا كثيرًا عن الوضع ثم ذهبت، بعد أن أعطيت الميعاد نفسه. وفي اليوم التالي حضر تلميذان، ولكن ليس قبل العاشرة والنصف، عندئذٍ كتبت على الصحيفة ما يلي: «هناك فارق بين الثوري والوقح، الثوري ينزع الساعة التي تحدد الوقت من على الجدار ويدمرها، ولكنه يحضر قبل بدء ميعاد الدرس بخمس دقائق، لكن الوقح ينزع الساعة من فوق الجدار ويحضر

إلى الدرس ساعتين متأخرًا. غدًا كاميليري سيجرب للمرة الأخيرة، وسيكون في الفصل في الساعة التاسعة». وما حدث أنه في اليوم التالي في الساعة التاسعة وجدت جميع تلاميذ الإخراج، وكانوا خمسة.

من التدريس تلقيت أكثر بكثير مما أعطيت. سأشرح بطريقة أفضل: من خلال المواجهة المستمرة بين أفكارى وتلك التي للشبان المثقفين، المُعَدِّين جيدًا والمتقدين ذكاءً، كنت أشعر بأنني أجنبي كثيرًا، حيث كان يُحقن شيء كالدماغ الطازجة والمختلفة داخل أفكارى، كان اقترابي من نص ما متوقعًا عند عشرين عامًا مضت، من خلال القراءة التي يقوم بها شاب يتغير على نحو إيجابي ويتجدد. كانت الخبرة مثيرة جدًا بالنسبة إليّ حتى إنني كنت أشعر في أثناء زهابي إلى حصي كأني دراكولا، الذي يَمصُ الدماغ ليظل على قيد الحياة. وإذا كنت اليوم ما زلت فضوليًا بشأن طرق الآخرين في التفكير، فالفضل يرجع في ذلك إلى خبرة التدريس.

في الوقت نفسه، عام ١٩٦٨، حدث شيء شبيه بما حدث في المركز التجريبي في الأكاديمية الوطنية للفن الدرامي أيضًا، ولكن هناك حدث بشكل عجيب. لم يُطرد الأساتذة فقط ولكن دعاهم التلاميذ إلى احتلال المدرسة معهم، وهكذا وجدت نفسي مع مدير المدرسة وقتها، روجيرو جاكوبي (70)، نائمين بين أرائك المدرسة في حقائب النوم التي لا يمكن الفرار منها.

ولمدة نحو عشرين عامًا عملت دون هدنة، كنت أخرج في المسرح والتليفزيون والراديو وأدرس وأكتب مقالات للمجلات والصحف المتخصصة.. ولكن كل هذا العمل كانت له نتيجة سلبية، هي أنني لم أستطع المكوث بجوار بناتي في أثناء نموهن. كنت أمكث كثيرًا خارج المنزل، وكان المثال الأكثر وضوحًا هو الكيفية التي كتبت بها جدتك أدريينا موضوع «أبي»، وهي في المرحلة الابتدائية. «أبي عندما يعود إلى المنزل يتشاجر مع أمي، ثم يغلق على نفسه في مكتبه ويقرأ سيناريوهات. يخرج في المساء ويعود في اليوم التالي. في بعض المرات يعرف كيف يشغل غسالة الملابس.» لأدافع عن نفسي أقول إنني في تلك الفترة كنت أعيش في سعادة واتفاق تام مع روزيتا، إذا تلك التي اعتقدتها آنريينا مشاجرات لم تكن سوى مناقشات عائلية عادية جدًا. كان حقيقيًا أنني كنت أخرج في المساء لأذهب إلى بروفات المسرحيات، ولكنني تقريبًا كنت أعود في منتصف الليل عندما تكون البنات قد نمن، ولذلك بالنسبة إليها كنت أعود في اليوم التالي. كنت بالفعل أعرف كيف أشغل الغسالة لأنها من حين إلى آخر لم تكن تعمل جيدًا وكل فترة تتوقف، وكنت قد اكتشفت أنني بركة في مكان معين أستطيع أن

أعيد تشغيل الموتور. وسأضيف أيضًا أنني، دون أن تدري جدتك، كنت أكوي. ولكنني أقسم أن مساهمتي في الحياة العائلية لم تكن هذا فقط.

لكنني كنت دائمًا جدًا صالحًا. جدًا صالحًا إلى حد أن بناتي لم يحرمنني من بعض مشاهد غيرة. كان لأحفادي، منذ صغرهم، مطلق الحرية في الدخول إلى مكتبي حيث كان في إمكانهم اللعب دون أن يزعجونني على الإطلاق، بل إنني كنت أحب أن أسمعهم يعيشون ويحررون طاقتهم داخل غرفتي، وكانت طاقة معدية تجعلني أعيش بطريقة أفضل. كان يمكنهم الصعود فوق المكتب، أو كما كان يحدث عادةً، المكوث للعب أسفل المكتب وهم يقاطعونني باستمرار، ولم يكن يرمش لي جفن، ولكن لم يكونوا سببًا في أي إزعاج، حتى إن زوجتي قالت لي في أحد الأيام: إنك لست كاتبًا، بل مراسل حربي.

يمكنك إذاً أن تتخيلي، يا ماتيلدا الغالية، السعادة التي شعرت بها عندما وصلت أنت أيضًا أسفل مكتبي.

غير العمل في المسرح مستقبلي المهني. في خبراتي الأولى للإخراج كانت علاقتي بالمثلين علاقة متضاربة. كنت أستعد للإخراج بأن أقرأ وأعيد القراءة لعشرات المرات التالية نصًا ما، وفي الوقت نفسه كنت أسجل ملحوظاتي حول طابع الشخصيات المختلفة، أدرس السيناريو، ليس فقط في علاقته مع الأعمال الأخرى التي قام بها المؤلف نفسه، ولكن أيضًا مع موقف المؤلف من إجمالي الحركة المسرحية المعاصرة له. إذا أحيانًا كانت تحدث لي ظاهرة غريبة، هي أنني كنت أمتلك النص إلى حد أن الشخصيات كانت تنهض من الصفحة وتبدأ في التجوال في الحجرة كأنها كائنات بلحم وعظم. فقط عندئذ كنت أشعر بأنني مستعد لمواجهة عملية الإخراج، عندئذ كنت أجلس إلى المائدة مع الممثلين. كل هذا الإعداد كان يخلق لدي خطة ذهنية محددة وصارمة لا أنوي التزحزح عنها، وكان الإخراج بالنسبة إليّ نوعًا من فرض رؤيتي، لا يسمح بانحراف أو تفريط، ولكن كنت أرتكب بذلك خطأ: لم أكن أعتبر الممثل شخصًا لديه هو أيضًا تكوينه وأفكاره المحددة، بالإضافة إلى خبرته، سواء طويلة أو قصيرة، على خشبة المسرح. في أحد الأيام حدث لي أن جمعت كل الممثلين على خشبة المسرح، و، بعدم رضا، لم أعنفهم بشدة فقط، ولكن أفلتت مني أيضًا بعض الإهانات الثقيلة. عندما عدنا إلى البروفات، كان هناك بين الممثلين ممثل كوميدي مسن في الثمانينيات، أريستيدي باجيتي (Z1)، وكان أحد نجوم الكوميديا في بدايات القرن العشرين. ونظرًا إلى أنه كان يسكن بالقرب من مسكني، فكل ليلة، في نهاية البروفات، كنت أتأبط ذراعه وأمشي معه حتى باب منزله. في تلك الليلة،

شعرت بأن واجبي، نظرًا إلى سنه المتقدمة، أن أعتذر له بسبب المشهد السيئ الذي فعلته، عندئذٍ قال لي:

- اسمع يا دكتور، إذا كنا لا نفعل ما تريده، ليس لأننا نصر على أن ننفذ ما تريده، ولكن لأننا لا نفهم دائمًا ما تريده. فحضرتك شاب مثقف ونحن لسنا كذلك. حضرتك تستخدم كلمات أو تعبيرات ليست دائمًا مفهومة، أو أحيانًا. ربما إذا تحاورت أكثر معنا، وإذا في نهاية اقتراح لك طرحت سؤالًا مثلما يفعلون في المدرسة: هل فهمتم ما قلته؟ ستكون الإجابة لا. إجابة يمكن أن تتغير إذا كان لديك الصبر على أن تصر وتشرح أفكارك لنا حتى تصبح في نهاية الأمر واضحة وضوح الشمس. عندئذٍ يمكنك أن ترضى عنا.

أعترف لك أنني لم أنم في تلك الليلة. تلك الكلمات القليلة لباجيتي لم تكن بالنسبة إليّ مجرد درس في المسرح، بل أيضًا درسًا في الحياة. منذ تلك اللحظة كان الحوار مع الآخر عنصرًا أساسيًا في كينونتي. وإذا كنت قد استطعت تقديم بعض الإخراج على مستوى جيد، كان ذلك لأن صدى كلمات باجيتي لم يتوقف قط عن التردد بداخلي.

بعد أعوام كثيرة بدأت أشعر ببعض التعب، ليس من تقديم المسرح، ولكن من حكي قصص فكر فيها آخرون ومكتوبة بكلمات آخرين. كما سبق وأخبرتكم، وأنا شاب نشرت أشعارًا وقصصًا قصيرة نالت بالفعل تقديرًا جيدًا، ولكن نشاطي الأدبي هذا كان قد تطاير في الهواء في حضور المسرح. كانت دراستي للإخراج ثم عملي كمخرج في أعقاب ذلك جعلني أنغمس بالكامل في عالم المسرح، إلى حد أنني، لمدة طويلة، لم أعد أهتم بأن أكتب أشعارًا. إلا أنني في لحظة ما، كشف العرق الشعري والروائي، الذي اعتقدت أنني كنت قد دقنته، أنه شيء كالمجرى العميق. وعثرت الرغبة في أن أحكي قصة بكلماتي على الفرصة لأن تتحقق بالفعل في أثناء موقف شخصي درامي. كان أبي قد انتقل مع أمي من صقلية إلى روما ليسكن بجواري أنا وحفيداته، وبعد بضعة أعوام مرض بشدة ودخل المستشفى. بعدها ببضعة أيام قال لي الأطباء إنه ليس أمام أبي سوى بضعة أشهر من الحياة. صدمني هذا الخبر المفاجئ بشدة. ثم، كيف يمكنني أن أقول هذا لأمي؟ خرجت من العيادة ودخلت بارًا. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، وكان هناك لعبة الكرة والدبابيس (Z2) بدأت ألعب وانتهيت من اللعب في الثامنة مساءً. لمدة خمس ساعات ركزت فقط على اللعبة، ولكن في النهاية شعرت بأنني مستعد لمواجهة الأيام المقبلة. تركت كل ما كنت على وشك عمله، وقضيت الليالي التالية في العناية بأبي، أجلس معه في غرفته الصغيرة، وإلى فراشه كنت أضيف مقعدًا لي. لم يكن أبي يستطيع أن ينام، وهكذا كنا نقضي الليلة في

التحدث معًا، نوضح أي سوء تفاهم أو خلاف، ويكشف كل منا ما في نفسه للآخر دون تحفظات. منذ تلك الليالي، وعلى الرغم من كل شيء، خرجنا كلانا في سلام وصفاء. وعندما انتهينا من تلك التوضيحات الطويلة والمؤلمة، طلب مني أبي أن أحكي له بعض القصص. عندئذٍ أجبتُه بأنني منذ بضعة أشهر أفكر في كتابة رواية. أظهر أبي في الوقت نفسه سرورًا ودهشة:

- ولكنك حتى هذه اللحظة لم تكتب سوى الشعر والقصص القصيرة، كيف تريد الآن كتابة رواية؟

أجبتُه بأنه ربما كانت خبرة المسرح الطويلة هي ما دفعتني إلى هذه الخطوة. وبدأت أقصها عليه. في النهاية جعلني أبي أعده بشيء: أن أكتب تلك الرواية بالطريقة نفسها التي حكيتها بها. كيف حكيتها له؟ لقد فعلت ذلك مستخدمًا طريقة كلام البرجوازية الصقلية الصغيرة، وخلطت بين اللهجة واللغة. واستعنا في ذلك بما لاحظته بيرانديلو في إحدى مقالاته النقدية بدقة: «من ناحية يمكن للغة أن تعبّر عن مفهوم معطى معين، في حين أنه عن الشيء نفسه يمكن للهجة أن تعبّر عن المشاعر». في الواقع، عندما كنا نرغب في أن نصيغ موقفًا معينًا، وأن نجعله بطريقة ما منفصلاً عن أي شعور، كنا نستخدم الإيطالية. في حين كنا نستعمل لهجتنا لكل إيحاءة خاصة بالمشاعر، وكل محاولة لجعل الحوار أكثر حميمية، ولكي نجعل الكلمات نفاذة أكثر.

احتفظت بالوعد الذي قطعته لأبي، وفي العام التالي، عام ١٩٦٨، كتبت روايتي الأولى المعنونة: **مسار الأشياء (73)**. بمجرد أن انتهيت منها، أرسلتها إلى صديقي الناقد الأدبي الكبير نيكولو جالو (74)، الذي كنت ألتقي معه كل سبت. بمجرد أن استلم روايتي، لم يقابلني نيكولو لمدة شهر، عندئذٍ تركت له رسالة في الاستقبال: عزيزي نيكولو، لا أستطيع أن أفقد صداقتك بسبب رواية من الواضح أنها لم تعجبك. تظاهر بأنك لم تستلمها قط، واتصل بي. اتصل بي على الفور ودعاني إلى الذهاب إلى منزله. ذهبت إليه وعلى مكتبه وجدت الرواية وبجوارها كومة أوراق تحتوي على ملحوظاته. قال لي نيكولو إن روايتي جميلة جدًا، ولكنه لم تكن لديه الشجاعة لأن يتعمق بشدة في التبديل بين اللغة واللهجة، لذلك في الأوراق الجانبية كتب لي كل العبارات التي سيكون من الأفضل أن أدققها، ودعاني هكذا إلى أن أتشجع أكثر. منحي ثلاثة أو أربعة أشهر من الزمن لأعيد كتابة الرواية، وقال لي إنه سينشرها لدى موندادوري حيث يعمل هو كمحرر مهم.

عندما شعرت بأن لديّ بعض الوقت، لم أضع يدي على الفور في التصحيح، حتى وصلني في أحد الأيام الخبر السيئ أن نيكولو توفي فجأة. عندئذٍ بدأت

أرسل الرواية بلا تعديلات لكل دور النشر الإيطالية وتلقيت دائمًا الرد نفسه: لا يمكن نشر روايتك بسبب اللغة. واستمر الرفض لمدة عشرة أعوام. ولكن، لأقول لك الحق، لم أفقد الأمل، ولم أياس، بل لم يهمني شيء، واستمرت في العمل في المسرح.

وفي عام ١٩٧٨، أحد أصدقائي كتّاب السيناريو، عندما رأى وأدرك أن روايتي رفضها الجميع، اقترح عليّ أن يصنع منها نصًّا للتلفزيون. وافقت. وهكذا نشرت بعض الصحف خبر أنه يجري الإعداد لسيناريو تليفزيوني عن روايتي وأن العنوان سيكون **اليد على العينين (75)**. عندئذٍ تلقيت خطابًا من ناشر مدفوع الأجر، لالي (76)، اقترح عليّ أن أنشر مجانًا روايتي إذا كتبنا في العناوين النهائية في السيناريو أنها مقتبسة من رواية **مسار الأشياء** المنشورة في دار نشر لالي، كان يريد بعضًا من الدعاية التليفزيونية. وهكذا عن طريق نوع من المقايضة نشرت الرواية. بطبيعة الحال، لم توزع كثيرًا، لذلك تُجوهلت تقريبًا، ولكن بالنسبة إليّ بمجرد أن وُضع الكتاب بين يدي شعرت على الفور بالرغبة الفورية في أن أكتب واحدًا آخر. وعلى بُعد نحو عشرة أعوام من الأول كتبت **خط من الدخان**. وفي هذه المرة، على كل حال، قال لي صديقي روجيرو جاكوبي (77): لا أريد أن تلقى تلك الرواية مصير الأولى.

أخذها تحت ذراعه ورحل بها إلى ميلانو. أعطى المخطوط لكاتبة بارعة، التي صارت بعد ذلك من أصدقائي المقربين، جينا لاجوريو (78)، زوجة الناشر ليفيو جازانتي (79). وبعد نحو عشرة أيام تلقيت مكالمة لم أكن أتوقعها من جازانتي، يخبرني أن كتابي أعجبه كثيرًا وأنه سينشره على الفور في دار نشره القيمة. وهذا ما حدث بالفعل. هذه المرة تلقت الرواية نقدًا أدبيًا جيدًا.

بعدها على الفور كتبت، رواية- دراسة، عنوانها **المأساة المنسية (80)**، ومن خلال ليوناردو شاشا (81) نشرت مع دار نشر إيلفيرا سيليريو (82)، وكانت هذه بداية تعاون طويل جدًا استمر حتى الآن. ولكن ليس فقط تعاون، كانت بداية صداقة عميقة حقيقية. كانت إلفيرا امرأة رائعة. أريد أن أقول إنها تميزت بخصال طبيعية تفوق ما هو معتاد، وكانت لديها موهبة أن تجمع معًا الخصال الإنسانية والمهنية التي لا يمكن بالتأكيد نسيانها. أتذكر مناقشات مشتتة جدًا، ونوبات غضب فعلية وحقيقية إلا أن رقتها كانت دائمًا حاضرة.

وبعد أن نشرت رواية أخرى، **موسم الصيد (83)**، لم يعد في قدرتي أن أكتب شيئًا آخر. وكان سبب المشكلة أنني لم أكن أستطيع أن أكتب وأنا مستمر في العمل المسرحي. قررت أن أودع خشبة المسرح. كان وداعًا طويلًا بالفعل، واستمر في الواقع ثمانية أعوام. عندما قدمت عرضي الأخير المأخوذ من

ثلاثة أشعار لماياكوفسكي (84)، وعنوانه **الحيلة والنفس (85)**، وشعرت بأني الآن لم يكن لدي مزيد لأقوله في هذا المجال. إيلفيرا، التي لم تطلب مني في أثناء تلك الفترة كتابًا جديدًا، حضرت على أول العرض، وفي النهاية تأبطت ذراعي وقالت لي: أعتقد أنك الآن مستعد لأن تعطيني كتابًا جديدًا. كانت قد فهمت كل شيء. وعدت إلى الرواية.

عام ١٩٩٤، شعرت بالحاجة إلى أن أكتب كتابًا وأنا منغلقة خلف قضبان ذلك القفص، ألا وهو الرواية البوليسية، وولدت **شكل الماء (86)**، التي كان بطلها المفتش سالفو مونتالبانو. إلا أنني لم أكن راضيًا جدًا عن عملي. في تلك الصفحات كانت شخصية المفتش مبهمة في بعض الأحيان، أريد أن أقول إن مونتالبانو كان وظيفة أكثر منها شخصية. ولكي أجعله هكذا، كتبت رواية أخرى، **الكلب الفخاري (87)**. وفي نواياي، بعد هذا الكتاب ألا يعود مونتالبانو أبدًا إلى صفحاتي. ولكن حدث شيء عجيب: نالت روايتنا مونتالبانو نجاحًا ساحقًا لدى القراء، وهذا دون أن تقوم دار نشر سيليريو بأية دعاية. كان ذلك الاستحسان بفضل كلام القراء بعضهم مع بعض. وفي خلال عام واحد، وصلت النسخ المبيعة من كتبي إلى حصة قدرها ثمانمئة ألف نسخة، ولذلك أجبرتني إيلفيرا سيليريو، تقريبًا، على كتابة رواية ثالثة، ويكون بطلها مونتالبانو. أطعت رغما عني، لأنني كنت أعتقد أنني لن أستطيع أن أصمد مع شخصية في سلسلة، فالكتابة في سلسلة تفترض نوعًا من القدرة الرياضية لرياضي ماراثون، في حين كنت دائمًا أعد نفسي، بالكاد، عداء مئة متر. إلا أن مع مونتالبانو حدث لي أن بدأت تلك الشخصية في أن تتعايش معي، وكلما زاد النجاح، شعرت بنفسى سجينًا له. وبينى وبينى شخصيتى تكوّنت، في نهاية الأمر، علاقة حب وكراهية، استمرت حتى اليوم.

بينما أكتب لك، أعلمنى الناشر سيليريو أنه باع ثمانمئة مليون نسخة من رواياتى فى إيطاليا فقط. وكان البث التليفزيونى لتحقيقات مونتالبانو، التى بدأت فى التاريخ نفسه، قد تجاوز فى إيطاليا مليارًا ومئتى مليون مشاهد. ونقلت حلقات مونتالبانو إلى ثلاث وستين دولة، وترجم كرواية إلى سبع وثلاثين لغة. وعلى الرغم من ذلك، ما زلت أعتقد أن أفضل ما كتبتة يمكن العثور عليه فى الروايات التاريخية والمدنية مثل **ملك أجريجنتو (88)**، **صانع البيرة فى بريستون (89)**، **توصيل الهاتف (90)**، أو فى الثلاثية التى أدعوها أنا ثلاثية التحولات التى تتكون من: **ماروزا موزيموتشى، موظف التحويلة، الجرس (91)**.

الخلاصة، أننى حصلت على نجاح ساحق كمؤلف، ولكننى أريد أن أعترف لك بأننى لم أستطع قط أن أفسر لفسى أسباب هذا. كتبت دائمًا ما شعرت بأننى

أرغب في كتابته، بلا أي فهم لذائقة الجمهور.

ظللت مخلصًا لنفسي، لكتابتي، لتلك الكتابة التي هي «عمل قيد التطوير work in progress»، لأنها مع الوقت تتزايد في كونها لغة مُختَرعة.

في حوارات مختلفة طُرح عليّ السؤال إذا كان النجاح قد غيّر وجودي. كانت إجابتي هي لا، وهذا يتفق تمامًا مع حقيقة الأشياء. مكث النجاح دائمًا على عتبة بيتي، لم ينجح قط في أن يتخلل لا داخل علاقاتي العائلية، ولا في علاقاتي مع العالم. عندما كنا حديثي الزواج، لم أنجح قط في أن أقدم هدية ذات قيمة كبيرة، لا أدري، عقدًا أو قراء مثلًا، إلى زوجتي روزيتا، وكانت هي من أبعد الشخصيات عن تلك المظاهر الخارجية. لم أنجح حتى عندما كان يمكنني أن أفعل ذلك بلا تضحيات. لقد نظرت دائمًا، ببعض الانفصال، إلى أي تقدير حصلت عليه، بل وبنوع من السخرية الذاتية أيضًا. لقد نلت جانبًا من الحظ، ذلك بأنني انغمست في شبابي المبكر في مقالات مونتين (92)، التي تُعد من القراءات المؤسسة في حياتي. كانت هناك عبارة لمونتين، حملتها معي دائمًا طيلة سنواتي العديدة: «تذكر دائمًا أنك كلما صعدت إلى أعلى أظهرت مؤخرتك». أعترف بأن شيئًا واحدًا أراحمي النجاح فيه، هو أنني كان لديّ في حوزتي مبلغ من المال لم أحلم قط أن أمتلكه. ماذا فعلت بتلك النقود؟ ابتعت لكل من بناتي وأحفادي منزلًا، ومنحت نفسي أنا وروزيتا منزلًا، بالإضافة إلى أنني أصبح لديّ الأمان بأنني سأجد النقود الكافية في حالة الضرورة، واستخدمت جزءًا منها لمساعدة الآخرين.

لا أعتقد أنني كاتب عظيم. في إيطاليا يطمح الجميع إلى بناء الكاتدرائيات، في حين أنه بالنسبة إليّ، أحب بناء الكنائس الصغيرة البسيطة الريفية. وهذا يكفيني ويفيض. لقد كتبت كثيرًا، وعندما بلغت التسعين من عمري احتفلت بكتابي رقم مئة. صدقيني، لا توجد صفحة فيها لم أكتبها بإخلاص مطلق، ولاحتياج حقيقي إلى أن أحكي. أنا نفسي أعد أنني حكاء أكثر من كوني كاتبًا، أي ذلك الشخص الذي يستهلك في متعة الحكى كل قدرة تعبيرية عنده.

كمؤلف لم أرغب قط في أن أغلق نفسي داخل نوع من العزلة الثمينة. البرج العاجي الذي يدخله بعض الزملاء كثيرًا بالنسبة إليّ هو مكان لا يمكن السكنى فيه، بالنسبة إليّ فإن السياسة المفهومة كنوع من المشاركة الاجتماعية لم تغب تمامًا عن الوجود. حدث في الواقع أن أرسل إليّ بعض القراء رسائل اعتراض بسبب أفكارى السياسية التي أعرتها لمونتالبانو. وصل

بأحدهم أن كتب لي أنني ليس من حقي أن ألمح بهذا الشكل عن طريق مونتالبانو، لأن الشخصية الآن لم تعد شخصيتي ولكن صارت ملكاً للقراء.

طالما شعرت بأن الانغماس في السياسة واجب، ولكنني لم أرغب قط في أن أكون رجل سياسة. سأشرح بطريقة أفضل. أخبرني أسقف أجريجينتو، بأسم كل أساقفة صقلية، أنه يرغب في أن يكتب رسالة إلى الرئيس شامبي يطلب منه أن أعين عضو مجلس شيوخ مدى الحياة. هاتفته على الفور، وتحدثنا لأكثر من ساعة، وفي النهاية استطعت أن أجعله يتخلى عن اقتراحه. والشيء نفسه حدث بعد ذلك ببضعة أعوام، عام ٢٠٠٠، عندما اقترح، من كان آنذاك المنسق لسكرتير الحزب الديمقراطي الاشتراكي بيترو فولينا(93)، أن أرشح نفسي كعضو مجلس الشيوخ في دائرة انتخابية محصنة، أي يقع عليها الاختيار على نحو مؤكد. وفي هذه المرة أيضاً أقنعت محدثي بالعدول عن فكرته. هذان الرفضان لهما -بالنسبة إليّ- سبب محدد بوضوح. أعلم أنه للقيام بدور سياسي لا بد للمرء أن يتفرغ له على نحو كامل. كنت أشعر بداخلي، بأنني إذا وافقت، فإن كل مستقبلي المهني ككاتب سيتأثر بلا شك. ولكن لم أنزع نفسي من السياسة. عندما استدعاني رئيس الصحيفة اليومية **الميساجيرو(94)** للتعاون، بدأت في كتابة ملحوظات نقدية حول عادات وتقاليد الإيطاليين اليوم، وعندما انتقلت إلى النسخة الصقلية من جريدة **لا ريبوبليكا(95)**، انشغلت على نحو ملموس بعدد من المسائل الاجتماعية الاقتصادية للجزيرة. ولكن ظهر اهتمامي الأكبر ككاتب مقال في أثناء تعاواني طويل الأمد مع جريدة **لا ستامبا(96)** في تورينو. هناك، في الحقيقة، كتبت أيضاً عن السياسة. وبعد ذلك تعاونت مع صحيفة **لونيستا(97)** لمدة عامين.

في أثناء حكومات برلوسكوني المختلفة، وصل اهتمامي إلى أقصى حد له. لم أكتب فقط مقالات لمجلة **ميكروميغا(98)**، ولكنني نظمت أيضاً مع الصديق باولو فلوريس داركيه(99) مظاهرات جماهيرية مناهضة لبرلوسكوني، كانت دائماً سلمية. وقد رأيت أن -سأعود لأكرر- واجبي كمواطن أن أشارك في الحياة السياسية. وللسبب نفسه قمت بمدخلات مع برامج تليفزيونية مختلفة، قلت دائماً فيها رأيي بكل صراحة بلا أية رتوش، وربما استطاع كثير من المشاهدين أن يدركوا تصرفي هذا.

اليوم، ونظرًا إلى سني المتقدمة، وفقدان البصر الذي أصابني، لا بد أن التزامي هذا قد خفت بعض الشيء، ولكنه لم ينطفئ، حتى إن كنت مجبرًا أن أعد الطريقة الحالية للعمل في السياسة، تقريبًا غريبة بالنسبة إليّ. ربما لأنني كنت، كيف أقول هذا، ربما تعلمت بطريقة سيئة. إن رجال السياسة، من أمسكوا في أيديهم بزمام الأمور في إيطاليا بعد التحرير، كانوا رجالاً أجبرتهم

الفاشية على المنفى، والسجن، أجبرتهم على الانعزال والصمت. كانوا رجالاً مثل الشيدي دي جاسبري(100) الديموقراطي المسيحي، ولويجي إيناودي(101)، المتحرر، وبالميرو تولياتي(102)، الاشتراكي، وبيترو نيني، وساندرو برتيني(103) الاشتراكيين، وكارلو سفورزا وفيروتشو باري(104) حزب الحركة(105)، كلهم رجال بدؤوا الانخراط في العمل السياسي قبل حلول الفاشية وكانوا يعرفون بالفعل قيمة الديموقراطية. ولكن في تلك الأزمنة، وعلى الرغم من نزاعاتنا، كان لدينا هدف مثالي مشترك، هو النهوض بإيطاليا من حطامها.

أريد أن أحكي لك عن حدث لا يعرفه كثيرون ولكنه كاشف. في نهاية عام ١٩٤٦ استُدعي رئيس المجلس الإيطالي الشيدي دي جاسبري إلى فرنسا ليعلن أمام المنتصرين الإنجليز والأمريكان والفرنسيين، والروس، إلخ، ما ستكون عليه أغراض الحكومة للأعوام التالية. حسنٌ، في الليلة السابقة لخطبة دي جاسبري، وفي حجرته في الفندق الباريسي، التف حوله تولياتي، نيني وسفورزا، كل عبارة كتبها دي جاسبري كان يُخضعها لحكم الآخرين، ليعدلوها ويصلحوها، ويضيفوا صفة، ويمحوا أخرى. في تلك الغرفة، في تلك اللحظة، لم يكن يوجد فقط الديموقراطي المسيحي دي جاسبري، ولكن إيطاليا بكاملها. وفي صباح اليوم التالي في اللحظة التي خرج فيها من الفندق، أدرك كارلو أن سترة دي جاسبري كانت مُستهلكة عند المرفقين، فنزع سترته وأعطاه إياها. تقدم دي جاسبري للمنتصرين وبدأ خطبته بتلك العبارة:

«أشعر أن كل شيء داخل هذه الصالة، ما عدا احترامكم الشخصي، ضدي و ضد البلد الذي أمثله».

نزع الذنب عن إيطاليا، ومنذ تلك اللحظة تغيرت العلاقات بين بلدنا والبلاد المنتصرة تغيرًا جذريًا.

يبدو لي شيئًا مهمًا أن تعرفي الإطار الذي فيه جرت أعوامي الاثنان والتسعون من الحياة. سمي المؤرخون الفترة ما بين الأعوام ١٩٤٨ و ١٩٩٦ بالجمهورية الأولى. ففي عام ١٩٤٦، ومن خلال استفتاء شعبي، أعلن سقوط الملكية التي كانت حتى ذلك الوقت تحكم في إيطاليا، وعُقدت انتخابات عامة جاءت إلى البرلمان بمن كان عليهم كتابة الدستور الإيطالي. قام الآباء المؤسسون بعمل رائع، في الواقع دستورنا يُعد من أفضل الدساتير في العالم. ولكن ما حدث أن الجمهورية الأولى كان يهيمن عليها بصفة جوهرية حزب الأغلبية، أي الحزب الديموقراطي المسيحي، وكانت تتدخل في السياسة

شخصيات تربت على يد الفاشية. ولأقدم إليك مثالا على هذا سأذكر أمينتوري فانفاني(106)، شخصية على قدر كبير من الأهمية في الحزب الديموقراطي المسيحي، كان يعمل قبلها كرئيس اللجنة الفاشية للمهرجانات، وهكذا كان عديد من الشخصيات البارزة للحزب نفسه من شباب الفاشيين. استمرت هيمنة الحزب الديموقراطي المسيحي لأكثر من أربعين عامًا، و فقط منذ الثمانينيات أصبح لدينا بعض الحكومات الاشتراكية. ماذا أعني بهذا؟ كان من الواضح أن الأمر يتعلق بأشخاص لا يرون السياسة بالطريقة نفسها التي كان عليها أسلافهم. عديد منهم لم يستطع الالتزام بالقاعدة الأولى للصدق والشفافية، وهي ما يجب أن تكون مرشد كل إنسان يكرس نفسه للسياسة. الإجماع الشعبي أن بإيطاليا يوجد فساد خفي يتعلق بالتحديد بالأحزاب السياسية. كيف كنا نعيش تلك الأعوام؟ حتى نهاية الخمسينيات تعاون البلد في إعادة بناء نفسه. وفي الوقت نفسه بدأت حركة ضخمة من الهجرة الداخلية من الجنوب نحو الشمال. وكان بهذه المناسبة أن أدركت أن إيطاليا بلد عنصري في الأعماق. من خلال العمل في تورينو كنت أرى لافتات معلقة على بوابات المنازل مكتوبًا عليها: نحن لا نؤجر للجنوبيين. وعلى الرغم من ذلك تفجر في نهاية الخمسينيات الرخاء الاقتصادي، أي بدأت فترة من تشغيل جميع العمال وعم الرخاء الجميع. ولكن في العقد التالي حدثت ظاهرة، مجهولة حتى الآن، اجتاحت إيطاليا، فقد نشأت في السر الألوية الحمراء، وهي مجموعات مسلحة تنتمي إلى اليسار الثوري. كانوا يعتقدون أنهم نوع من الطليعية العمالية، ولكنهم كانوا، كما عرفهم لينين، مجرد مرضى بالطفولة الثورية. في واقع الأمر الأغلبية العظمى من العمال لم تقع فريسة لتلك الخدعة. تركت الألوية الحمراء خلفها دربًا من الدماء، فقد قتلوا قضاة واقتصاديين، حقوقيين ونقابيين. ووصلت أعمالهم إلى قممها عندما خطفوا رئيس الوزراء آلدو مورو(107)، الذي كان على وشك أن يشكل حكومة ربما استطاعت أن تغير مصائر البلد، حكومة ديموقراطية مسيحية يدعمها الحزب الشيوعي. كان مشروع كهذا يضايق الأمريكان والاتحاد السوفييتي على حد سواء. لذلك اختطف مورو، وبعد نحو شهرين من السجن، عثروا عليه مقتولًا. وفي الوقت نفسه، في إيطاليا، نشأت ما تسمى بسياسة التوتّر. كانت قد بدأت عمليات إرهابية في البنوك والميادين، المحطات والقطارات. كانوا يرغبون في أن يظل البلد في حالة طوارئ مستمرة ليتمكنوا من خلق أرض خصبة لتحول استبدادي.

عام ١٩٩٢ اكتشف بعض القضاة من ميلانو حالة فساد: مدير إحدى الجمعيات الخيرية دفع رشوة ليحصل على مناقصة. كان أكثر شيء مدهش في هذا الأمر أن المدير لم يأخذ النقود لنفسه، ولكن لحزبه، الحزب الاشتراكي. وكما يقول المثل، كرزة تجذب أخرى. من خلال التحري بعمق ظهرت بعد ذلك

حالات أخرى من الفساد أكثر خطورة، فقد تورط فيها تقريبًا كل الأحزاب وكل الشخصيات السياسية البارزة جدًا. في أعين الناس، لم يبدُ التبرير الذي قدمه المحققون كافيًا، أنهم كانوا يحصلون على تلك الرشى لصالح الأحزاب المنتهين إليها. وبدأت بذلك التحقيقات -وتابعها الرأي العام كفضيحة كبيرة- وأطلق عليها اسم «الأيادي النظيفة». وفي أثناء المحاكمات اختفى بعض الأحزاب التي كانت قد حكمت إيطاليا، حتى تلك اللحظة، مثل الديموقراطي المسيحي، والحزب الاشتراكي، وحزب التحرر، والحزب الجمهوري. وبهذا كانت نهاية الجمهورية الأولى.

الجمهورية الثانية هي التي نشأت على أنقاض الأولى، وشهدت ظهورًا سياسيًا جديدًا تمامًا، سيلفيو برلوسكوني، الذي كان قد أعطى، من خلال القنوات التليفزيونية التي يملكها، دعاية واسعة النطاق للمحاكمات التي تمت للأسماء البارزة في الحركة السياسية القديمة. كان برلوسكوني رجل أعمال في الأساس متخصصًا في الإنشاء، استطاع أن يبتاع كل قنوات التليفزيون الخاصة ويدمجها كلها في شركة واحدة، وأصبحت منافسًا قويًا لهيئة الإذاعة والتليفزيون الإيطالية RAI. وليقدم نفسه كمرشح اضطر برلوسكوني إلى اللجوء إلى حيلة. بصفته صاحب القنوات التليفزيونية من جهة الدولة، فليس من حقه أن يترشح. أصر، زيفًا، أن الملكية لم تُعطَ له ولكن لشريكه فيديله كونفالونيري(108). سيتضح بعد ذلك لماذا قررت كل الأحزاب المتشككة أن تغلق عينًا، وهكذا، انتُخب برلوسكوني، الذي قدم نفسه على أنه الرجل الجديد، بإجماع شعبي. ولكن كرجل أعمال كان لديه عديد من الفضائح المخفأة، التي بدأت تتكشف بمجرد أن تولى السلطة. بدأت تنهمر ضده اتهامات من مختلف الأنواع، تتعلق جميعها بعمله في أعمال الإنشاءات. عندئذٍ دافع برلوسكوني عن نفسه مستخدمًا سلطته. أُجِّلَ وزراء العدل الذين كانوا يتتابعون في حكوماته النشر الرسمي لقوانين ذات أثر رجعي تعلن أن بعض الجرائم التي تُلطخ فيها برلوسكوني ليست موضوع اتهام جنائي، وكان فيضًا من القوانين الشخصية (المفصلة له بشكل شخصي *ad persona*). وبعد عدة أعوام، نحو عشرين، بدأ التوافق حول برلوسكوني يتداعى، ولكن ما أجبره على الاستقالة كانت الظروف الاقتصادية الكارثية التي وجدت إيطاليا نفسها فيها في أعقاب الأزمة التي تفجرت نتيجة سقوط مصرفي ضخم حدث في الولايات المتحدة. كانت المنتجات الفاسدة التي تسببت فيها حكومات برلوسكوني المختلفة، والتي نشأت من تصاعد الأزمة الأمريكية، قد حولت إيطاليا إلى الوضع نفسه الذي كانت عليه في أعقاب الحرب العالمية الثانية. كان لا بد لآلاف المصانع وأصحاب الصناعات الصغيرة أن تغلق، انتشرت البطالة، وخصوصًا بين النساء والشبان، ووصلت إلى مستويات لا

يمكن تحملها. وفي الحقيقة، فقط في هذا العام الأخير ٢٠١٧-٢٠١٨، بدأنا نشهد انتعاشًا حتى إن كان ضعيفًا جدًا.

وهذا، أعترف لك، شعور بالندم أحمله على كتفي. أقصد أنني ربما، شخصيًا، كان بإمكانني أن أفعل مزيدًا لكيلا أترك لكم مستقبلًا مبهمًا ومظلمًا. عندما عبّرت عن شعوري هذا بالندم، سألني أحدهم:

- ولكن ماذا كان بإمكانك أنت أن تفعل؟

عندئذٍ أجبتُه وحكيت له أسطورة كان قد عرفني إليها مثقف سنغالي.

اندلع في الغابة حريق ضخم. بعد فترة أدركت الحيوانات التي تعيش فيها أن هذا الحريق سينتشر أكثر وأكثر، وسيدمر الغابة كلها وهم أيضًا إذا لم يهربوا على الفور. وبدأ الجميع في عملية هروب يائسة. وكان الأخير في الهروب هو الأسد، لأنه نظرًا إلى كونه ملك الحيوانات، كان يشعر بواجبه لأن يظل حتى النهاية في المكان. ولكن، عندما كان على وشك الخروج من جحيم النيران ذلك، رأى طائرًا صغيرًا، طائرًا طنانًا يطير نحو الغابة المشتعلة وهو يحمل على صدره نقطة مياه صغيرة. سأله الأسد بدهشة:

- ولكن لماذا تذهب نحو الحريق؟

أجابه الطائر الطنان وهو يشير له إلى نقطة المياه:

- سأذهب لأقوم بواجبي.

هذا هو، ربما كان عليّ أنا أيضًا أن أفعل مثل الطنان وألا أستسلم للحريق.

لقد أشرت لك، في بداية خطابي هذا، إلى ذلك الذي أعتقد أنه سبب في فشل، أو شبه فشل الاتحاد الأوروبي. كان أول من وضع اقتراح افتراض وجود أوروبا متحدة، عام ١٩٢٢، الكونت كودونهورف كاليرجي (109)، الذي كان قد نشر كتابًا- مانيفستو يقترح اتحادًا يقوم على أسس تكنولوجية أكثر من كونها سياسية. في الواقع كان الأمر يتعلق بفرضية يوتوبية جدًا. ولكن ما كان ملموسًا أكثر ويمكن تحقيقه كان ما أطلق عليه مانيفستو فانتوتيني، الذي ألفه في الأعوام بين ١٩٤١-١٩٤٤ ألتيرو سبينيللي (110)، مناهض للفاشية محكوم عليه بالإقامة الجبرية بسبب عقائده السياسية، وألفه بالتعاون مع إيرنستو روسي (111). كان سبينيللي يتمنى اتحادًا فيدراليًا حقيقيًا بين الدول (شيئًا مثل الولايات المتحدة الأمريكية)، تكون له حكومة ديموقراطية

ينتخبها برلمان يتكون من ممثلي كل الدول المنتخبين على أساس الحق في الاقتراع العالمي. وحسب سبينيللي، سيكون على الحكومة الأوروبية أن تضع أقصى اهتمامها على المشاكل الاقتصادية للفيدرالية وعلى السياسة الخارجية. المانيفستو، الذي وُزع في البداية سرًا ثم نُشر بعد ذلك في نسخة سرية أيضًا، عام ١٩٤٤، أعدّها وقدم لها الفيلسوف أوجينيو كولورني (112)، بضعة أسابيع قبل أن يغتاله الفاشيون. كما ترين، يا عزيزتي، كان الأمر يتعلق بفكرة أوروبا متناقضة تمامًا مع تلك التي عرضها بادلور فون شيراخ (113) عام ١٩٤٢، والتي أثارت فزعي. في أعقاب الحرب العالمية الثانية بدأ عدد كبير من السياسيين اقتراح الأسس ليتمكنوا من تنفيذ فعلي لتلك التي كانت تبدو مجرد يوتوبيا. في الصفوف الأولى عثروا على رجال لديهم أفكار سياسية مختلفة ولكنهم يتفقون على ذلك التصور: دي جاسبري في إيناودي، دا أدينور في براندت، وغيرهم كثيرين.

وكان في الأعوام الأخيرة من القرن العشرين أن بدأ أخيرًا التحدث عن وحدة أوروبية، ولكن الدول المنضمة (ومن بينها إيطاليا، فرنسا، ألمانيا، بلجيكا، هولندا، المملكة المتحدة) لم تستطع الاتفاق على دستور مشترك. اعترضوا، خصوصًا في فرنسا وهولندا، وهذا مثل الخطية الأصلية للاتحاد، الذي تسبب في هشاشة جوهرية، لأن الدستور المشترك على مستوى كبير هو العمود الفقري لكل مجتمع. ولذلك على الرغم من إدراكها ذلك، فضّلت أوروبا أن تضع المشكلة جانبًا، وأن توسع الاتحاد ليضم دولًا جديدة، والعمل على الوحدة المالية.

اتفق على أن تكون للاتحاد الأوروبي عملة موحدة، يحكمها مصرف مركزي أوروبي حسب المعايير التي كانت تحكمها حتى تلك اللحظة العملة الألمانية. تسبب ذلك على الفور في صعوبة ضخمة في بلاد مثل بلدنا، معتاد على عملة ضعيفة، تفقد قيمتها على نحو دوري. الدولة الأولى التي لم تستطع أن تتحمل ما يسمى بـ«سياسة التقشف» كانت اليونان، وبالتالي أخضعت من قبل إخوانها الأوروبيين لنظام قاس من القيود. وكانت النتيجة الدرامية لهذا، اضطرت اليونان، لتدفع دينها لأوروبا، إلى أن تعاني المجاعة حرفيًا، وكانت هناك أيام مأساوية كادت فيها الدولة اليونانية تستقط، دون أن ترفع أوروبا بعض الشيء قسوة المعايير الجديدة للتمويل العام. ولتستمر في النظام المالي الأوروبي اضطرت اليونان إلى أن تدفع ثمنًا باهظًا.

لذلك يجب أن أقول لك يا حفيدة ابنتي الغالية إنه عندئذ اتضح لي أن أوروبا التي نعيش فيها لم تأخذ أي شيء من المثاليات التي عُبر عنها في مانيفستو

فينتوتيني. عندما تركت أوروبا اليونان تحتضر، ارتكبت في نظري جريمة قتل أم حقيقية، لأن كل ثقافتنا الفلسفية والأدبية، العلمية والفنية، وتلك التي نتغذى عليها حتى اليوم، وُلدت في أثينا والبلاد المجاورة.

إلا أن الظاهرة الحالية للمهاجرين أظهرت على السطح من جديد، بصلافة، النزعات الأنانية القومية. بعض البلاد، خصوصًا في الشرق، عند تعليق اتفاقية الشنجن (التي كانت قد هدمت الحدود وسمحت بالتحرك الحر للأشخاص والبضائع بطريقة لم تُعرف من قبل)، رفعت جدرانًا جديدة، وأعدت تحصين حدودها. بل وصل الحد إلى أن هددت النمسا بأن ترسل دباباتها إلى برينيرو(114). والأزمة بالفعل خطيرة، ولا توجد حاليًا أية حلول ممكنة لها.

لماذا أقول لك هذا؟ لأنني لا أعرف إذا، عندما ستقرئين تلك السطور، ستكون أوروبا قد اختفت، أو ستكون قد عثرت أخيرًا على وحدتها. في الحالة الثانية لن يكون لديّ شيء لأقوله لك، سأكون سعيدًا جدًا من أجلك ومن أجل كل مواطني أوروبا. أمّا في الحالة الأولى سيسعدني أن تكونوا أنتم الشباب من سببني أوروبا على أسس جديدة، لأنه كما ترين، يا عزيزتي، على الرغم من كل تلك الكلمات الجميلة في الأعوام الأخيرة، فما زال للمنافسات القومية وجود، وتظهر هنا وهناك بكل وضوح. الآن يكفي شيء بسيط لتتحول تلك المنافسات إلى صراع. والمعطيات الوحيدة الإيجابية التي أعتز بها لأوروبا اليوم هي أنه لم تعد هناك بين بلادنا حروب ضارية، وبالتالي لا يمكن أبدًا أن يتكرر زعب موت الملايين. ولهذا فقط يجب على الأوروبيين، في رأيي، أن يتغلبوا على كل المشكلات، والتنازعات، والأوضاع التي تقف حائلًا في طريق المسيرة نحو أوروبا يكون لها تصور نموذجي مشترك، عملة مشتركة، وسياسة خارجية مشتركة، وسياسة مشتركة في ما يتعلق بالجزء الآخر من العالم.

في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حدث في الولايات المتحدة شيء لم يكن متوقعًا على الإطلاق، عجيب، لا يمكن تصوره حتى في أفلام الخيال العلمي. اختطفت أربع طائرات ركاب، كل منها متجهة إلى وجهة مختلفة، وتحكمت فيها مجموعة من الإرهابيين المسلحين.

سقطت واحدة، والثانية أُلقت بنفسها في قلب القيادة العسكرية في الولايات المتحدة، البنجاجون، والأخيرتان اصطدمت كل واحدة منهما بأحد البرجين التوأمين في نيويورك.

نُسب ذلك الهجوم الإرهابي إلى منظمة إسلامية اسمها القاعدة، يرأسها شخص اسمه أسامة بن لادن.

(وقفة صغيرة: إحدى الصحف الإيطالية كتبت أن ما ضرب هي رموز حضارتنا. عندما قرأت تلك الكلمات، شعرت بواجبي أن أناقض ذلك على الملأ، لأنني، على الرغم من إدانتني هذا التصرف المجنون، لا أعترف بالبرجين كرمز لحضارتنا، وإنه على العكس من ذلك، الرموز التي تخصني هي أكروبوليس أثينا، أو الكولوسيوم، وربما برج إيفيل. ققطوني بالسباب).

ردت أمريكا على ما حدث بطريقة لم تكن مناسبة قط. في البداية هاجمت أفغانستان، فقد اعتقدت أن ابن لادن لجأ إلى هناك، وبعدها على الفور هاجمت العراق، الذي كان يحكمه الديكتاتور صدام حسين. ولكي تبرر هذا الهجوم الثاني لم تتردد حكومة الولايات المتحدة في أن تلجأ إلى كذبات تليق ببينوكيو. أطلع سكرتير الدولة الأمريكية العالم علي قنينة تحتوي ترابًا أصفر اللون وقدمه على أنه الجمرة الخبيثة، بكتيريا قاتلة، وأكد أن حسين يمتلك منها كميات ضخمة، أي إنه قدم رئيس العراق كخطر يهدد الإنسانية كلها. أعتقد أنه في تلك اللحظة وُلدت «استراتيجية الخوف»، التي نحن جميعًا ضحيتها حتى الآن. انتهت الحرب في العراق بعد بضعة أعوام بنصف نصر للأمريكان، ولكنها تسببت في مشكلة خطيرة: فصدام حسين بسلطته الديكتاتورية كان قد استطاع أن يُبقي الشعب متحدًا، فقد كان الشعب يتكون من مجموعتين متصارعتين، السنة والشيعية. تسبب إعدام صدام شنقًا في اندلاع التصادمات بين هاتين الفرقتين. قررت الولايات المتحدة، بعد ذلك ببضعة أعوام، أن تتدخل في سوريا، حيث يقمع الديكتاتور أسد بأقصى درجات العنف من ينتمون إلى الأحزاب المعارضة. وتسبب التدخل الأمريكي في استفزاز رد الفعل السوري والتركي وأوروبا، وبصفة خاصة في زعزعة الاستقرار الجغرافي والسياسي والاقتصادي لسوريا. عندما قرر الأمريكيون ألا يستكملوا الحرب ضد أسد، تركوا في حقل المعركة آلافًا من المحاربين الذين كانوا قد انضموا إليهم أحرارًا. استغل هذا الموقف الخليفة البغدادي، الذي أنشأ دولة جديدة لم يكن يعرفها أحد، وأسمها دولة الخلافة، واتخذت كقاعدة أساسية لها مدينتين: الموصل والرققة. إحداهما في العراق والثانية في سوريا. ومنذ تلك اللحظة أعلنت الخلافة حربًا، مستمرة حتى الآن، ولكن لم يعد أحد يفهم، بصدق، ضد ماذا اتجاهاها، لأنها لم تستخدم الإرهاب ضد المدن الأوروبية فقط، بل ارتكبت عمليات دموية ضد المسلمين أنفسهم. الأمر يتعلق بإرهاب من نوع خاص، يرغب في ضرب نظام الحياة الغربية. بالإضافة إلى أن كل الإرهابيين من الكاميكاز، مستعدون أن يفجروا أنفسهم بحزام من المتفجرات متسببين بهذه الطريقة في سقوط ضحايا آخرين في لحظة

الانتحار. باختصار أصبحنا جميعًا ضحايا زهان العمليات الإرهابية، إلى حد أن رئيس الولايات المتحدة الجديد ترامب أصدر سلسلة من القوانين التي تحد، أو تقريبًا تمنع، دخول مواطنين ينتمون إلى عدد من البلاد العربية الولايات المتحدة.

هذا الموقف، التراجيدي في حد ذاته، تدهور من واقع أن شعوبًا إفريقية كاملة متورطة في تلك الحروب، التي ليست وحشية فقط بل يقتل الإخوة فيها أحدهم الآخر، لذلك بحث كثيرون عن النجاة من خلال الهجرة إلى أوروبا.

هذا بجانب أن إفريقيا، الواقعة جنوب الصحراء، كانت منذ فترة فريسة للحروب القبلية، لا أحد يعرف كم حرضت المصالح الأوروبية على هذا. وبالفعل في نهاية التسعينيات، أي سياسي محنك كان سيدرك أن هذا سيعقبه بعد قليل أن آفًا من الإيرانيين والكنيين والإثيوبيين والنيجيريين والسوريين والأفغان والإيرانيين سيندفعون كالسيل الجارف نحو أوروبا. نظرًا إلى أن الأمر يتعلق -على نحو كبير- بأناس فقراء، اضطروا إلى أن يعبروا البحر المتوسط بوسائل تعتمد على الحظ، غير آمنة على الإطلاق، بدأ البحر المتوسط يصبح في وقت قصير، كما كان يقول تراجيدي يوناني عظيم «مزدهرًا بالجثث».

في تلك الأعوام الأخيرة فقد آلاف الرجال والنساء والأطفال حيواتهم، ضحايا أولًا لمستغلين خاسئين ثم لمخاطر عبور يتم بلا أي حذر. من المؤكد أن إيطاليا ساهمت في كثير من عمليات الإنقاذ البحرية للآلاف المؤلفة من البشر، ولكن الآن تدفع ثمنًا باهظًا لأن تصرفها هذا كان يتم إضعافه دائمًا، وباستمرار من صمم مُصمت من أوروبا كلها. لم يكن فقط صممًا ولكنها بالحري أنانية واضحة. عندما كانت هناك محاولات لإعطاء كل دولة أوروبية حصة معينة من المهاجرين كان الرفض عامًا، باستثناء ألمانيا، التي استقبلت بمفردها أكثر من مليون من اللاجئين السوريين. أعتقد أن أمام رفض الاستقبال هذا سببين، السبب الأول هو النظام الاقتصادي، هؤلاء البشر ليست لديهم أعمال، وفي أوروبا متأزمة، وصول ملايين من العاطلين لن يتسبب إلا في زيادة الأزمة القومية، وفي مرتبة ثانية أؤكد أن هناك دورًا كبيرًا لخوف غير عقلاني من الآخر. نظرًا إلى أن الأحزاب اليمينية، وببراعة شديدة، ربطت الهجرة كذبًا بالإرهاب، وبذلك زادت من معدل الخوف. الأمر يتعلق، سأعود لأكرر، بكذب يمكن دحضه على نحو موسع بالوقائع. من الصعب جدًا أن يبحر إرهابي على قارب مطاطي مخاطرًا بحياته، وبالتالي بفشل مهمته. اكتشف أن

أكثر من ٩٠% من الإرهابيين، من بينهم أولئك الذين قاموا بعمليات في فرنسا وإنجلترا وبلجيكا، مواطنو تلك البلاد، وأبناء مَن هاجروا منذ زمن بعيد.

إذا فالعدو لا يأتي من الخارج مع المهاجرين، بل هو موجود بالفعل في المكان الذي وُلد وتربى وتعلم فيه. إن تعليمة الأسوار تعني أن نحبس أنفسنا في المنزل مع العدو نفسه. ثم، باسم من نغلق الأبواب في وجه من يهرب من ويلات الحرب والجوع؟

نحن الإيطاليون شعب من المهاجرين، انتشرنا في العالم بالملايين، من الولايات المتحدة إلى ألمانيا وبلجيا، ونعرف ما الثمن الذي يدفعه من يهجر بلده وأحباءه وعاداته الخاصة.

إن «الآخر» هو أنتِ عندما تنظرين إلى المرأة.

«الآخر» هو أنتِ، كما كان «آخرين» الإيطاليون المهاجرون.

لسنا بحاجة إلى أن نخاف، قبل كل شيء لأنه ليس هناك سبب لهذا، ثم لأن أولئك المهاجرين غالبًا ما يشاركون، كثيرًا، في نهضة البلاد.

أريد أن أحكي لك، بهذا الصد، عن واقعة شخصية.

قررت عام ٢٠٠١ أن أمنح نفسي إجازة وأن أقضي أسبوعًا في فيينا حيث لم أذهب قط. وأتت معي روزيتا وماريولينا، ابنتي الأصغر. في صباح أحد الأيام قررنا أن نذهب إلى متحف تاريخ الفن. وقفنا فترة أمام لوحة **برج بابل** الشهيرة لبرويجل (115). فجأة، وبلا أية مقدمات شعرت كأن هناك مطرقة ثقيلة جدًا بدأت تضغط على رأسي، فتحت فمي، أريد أن أقول لعائلتي: «أشعر بأنني متألم»، ولكن بدأت تخرج من فمي كلمات لا معنى لها. وفي جزء من الثانية أدركت بوضوح أنني على وشك أن أفقد قدرتي على الكلام، وفي هذه اللحظة بالتحديد بدأت كل الشعيرات في رأسي تتفجر أسفل ضغط تلك المطرقة. بدأت الدماء تتدفق من أنفي بقوة شديدة إلى حد أنني اضطررت إلى ابتلاع جزء كبير منها حتى لا أختنق. خرجنا، وبدأنا نعبّر المتنزه، وكانت ملابسي تغطيها الدماء بالكامل، ولم يكن النزيف يشير إلى أنه سيتوقف، بل على العكس. عندئذ أخذت ابنتي تجري بحثًا عن تاكسي، واصطحبتني زوجتي حتى مخرج المتنزه، وبدأت تجري بدورها بحثًا عن نجدة. مكثت بمفردي. الناس -المدنيون النمساويون المحترمون- كانوا يعبرون من أمامي، وينظرون إليّ، ولم يقترب مني أحد، في ذلك الشارع المزدحم بالكامل، ليسألني إذا كنت بحاجة إلى مساعدة، بل على العكس، بعض منهم عندما رأى

أنني ما زلت أنزف، ابتعد باشمئزاز. عندئذٍ ظهر أمامي عربي، بائع حلي، شخص فقير، معلق على كتفيه صندوق كبير معدني. خلع الصندوق بسرعة من على كتفيه، ووضعه أرضًا، أجلسني فوقه، وبمנדيل أخرجه من جيبه حاول أن يوقف الدماء، ولم يستطع، عندئذٍ قال لي، بلغة لا أعرفها ولكنني فهمت على الرغم من ذلك، أن أنتظره لحظة، جرى بسرعة، وعاد ممسكًا بوشاح مبلل بماء مثلج استخدمه لينظف لي وجهي، وحاول أن يضعه في داخل أنفي ليووقف الدماء، ولكنه لم ينجح، ومن حين إلى آخر يربت على وجهي وهي يقول لي كلمات فهمت منها أنه يشجعني. وأخيرًا وصل تاكسي وبدأخذه كل من روزيتا وماريولينا، نهضت وبحثت في جيبتي، وجدت ورقة بخمسة آلاف ليرة، قدمتها إليه، ولكنه رفضها بنبل شديد وقال بالإيطالية، بعد أن سمعني أتحدث مع أسرتي:

- أنا مجرد صديق.

وأخذ الصندوق ورحل.

هذا هو «الآخر».

سأغير الموضوع وسأعود لأحدثك عن الفساد الذي للأسف ما زال يقبض على بلدنا وعاد ليلمس من جديد السياسة، ولكن، بينما كان الفساد من قبل مبررًا كنوع من التمويل غير القانوني للأحزاب، أصبح الآن طريقة شخصية ليضع المرء في جيبه نقودًا لا تحق له. اليوم، على سبيل المثال، يبدو كأن المشروعات العامة تستغرق وقتًا طويلًا جدًا قبل أن تُنفذ. وهذا يحدث قصدًا حتى تتضخم التكاليف حتى تصبح ثلاث أو أربع مرات أكثر من المقايضة. ثم غالبًا ما يضيفون أيضًا الاحتيال إلى الضرر. فنجد أن جسرًا، مدارس، معبرًا علويًا افتتحت منذ ثلاثة أشهر فقط، تسقط فجأة لأنها نُفّذت بمواد منتهية الصلاحية.

أنا أيضًا، في شبابي، كنت موضوع محاولة رشوة. في أحد الأيام أتى إلي مكتبي في الرأي أحد منتجي الأسطوانات، ليقتراح عليّ أن أضع أغنية معينة كإشارة المقدمة لبرنامج يتابعه كثيرون. أحبته بأنه وصل متأخرًا وأنني قد قمت باختيار آخر. بعد ذلك ببضعة أيام دُعيت إلى العشاء لدى بعض الأصدقاء، ولدهشتي الشديدة وجدت ذلك المنتج جالسًا على يساري، ولم يكن أحد قد أبلغني بوجوده. وفي أثناء العشاء تحدثنا عن موضوعات مختلفة. عندما عدت إلى المنزل، وأنا أنزع سترتي رأيت في جيبتي الأيسر مظروفًا ضخماً. كنت متأكدًا من أنني لم أضعه أنا. أخرجته، وكان يحتوي

على مبلغ خمسمئة ألف ليرة. فهمت على الفور أن هذا المنتج هو من وضعه في جيبي. سقطت فريسة غضب عنيف، شعرت بالإهانة، بالإهانة لأن أحدهم أستطاع أن يفكر في أنني شخص يمكن رشوته. في اليوم التالي استدعيتني إلى مكتبي، أعدت إلية المظروف وطلبت منه ألا يجعلني أراة مرة أخرى.

وكانت هناك مناسبة أخرى، مختلفة تمامًا، فجرت بداخلي غضبًا عارمًا. في ٢١ سبتمبر ١٩٨٦ عدت إلى بلدي لبضعة أيام. في ذلك المساء، كان يوم أحد، ونظرًا إلى أن الجو كان حارًا خانقًا، وبعد الظهر كانت قد أمطرت وانتعش الجو، تدفق الناس إلى الشارع كأنهم في عيد. قررت أن أنزل لأشرب ويسكي في أحد الحانات، وكانت موائد الحانة قد نُقلت إلى الخارج ووُضعت بطول الرصيف. وفي ما وراء الرصيف كان هناك عديد من السيارات المتوقفة. لوهلة توقفت عند الباب وأنا أطلب ما أود شربه من النادل، وكنت أنظر إلى الناس الذين يجولون. من داخل البار خرج شخص كنت أعرفه، ودعاني لأجلس في الخارج ليقدمني لأبيه ولأحد أصدقائه. وافقته. وبينما وصل هو إلى مائدته، وضعت أنا قدمي داخل البار لأذهب وأتناول كوبي، ولكن وقفت فجأة لأنني رأيت كل القنينات المعروضة خلف منضدة التقديم وهي تنفجر حرفيًا، وبعد ذلك بثانية سمعت شيئًا كنباح غاضب لجراء صغيرة، وفهمت على الفور أنها طلقات رشاش. خرجت ووجدت أمامي مشهَدًا لا يمكن تصديقه. ستة موتى ممددين أرضًا، من بينهم الشخص الذي كان قد دعاني إلى مائدته، عشرات من الجرحى الذين يصرخون ويصيحون. وجدت نفسي في وسط مذبحه من مذابح المافيا. إذا اجتاحني غضب، لا أستطيع وصفه، عدت إلى الداخل وطلبت من موظف الكاشير أن يعطيني مسدسه (كنت قد لمحتة في درج الخزانة)، ولكنه رفض. عندئذٍ، وأنا ما زلت فريسة لذلك الغضب الجامح، أخذت أصرخ: «قتله، خنازير!»، وذهبت إلى الخارج من جديد. بمجرد أن ظهرت في العراء، أطلقوا عليّ النار. سمعت صوت الطلقات تصفر حولي، وجاءني الإيحاء بأن ألقى بنفسي أرضًا خلف إحدى السيارات، وهكذا نجوت. ولكن كان غضبي شديدًا حتى بدأ جسمي كله يرتعش ولم أستطع التحدث. حاول النادل أن يطمئنني قائلاً:

- اهدأ، لا تخف، الآن انتهى كل شيء.

ولكن الأمر لم يكن يتعلق بالخوف. أعتقد أن هذا الغضب كان من واقع أنه بالنسبة إليّ أي شكل من أشكال لبيّ إرادة الآخرين، سواء من خلال الرشوة أو من خلال استخدام السلاح، يمثل أعمق الجرائم التي يمكن أن يرتكبها إنسان. أي نزع حريته في أن يقرر من نفسه. حرمانه من أعظم ما يمتلك: حرية الفكر.

والمافيا في إيطاليا، من خلال سياستها في الترهيب والتخويف (تخيلي أن اللجوء إلى المذابح أصبح عادة شبه يومية)، كانت على وشك أن تهدد الأسس نفسها التي قامت عليها دولتنا.

شارفت على الانتهاء من هذا الخطاب. ولا أريد أن تكوّنني أية أفكار خاطئة.

أنا أيضًا ارتكبت أخطاء، أنا أيضًا أخطأت، ولكن صدقيني إذا قلت إنني أخطأت وأنا لا أعرف أنني أخطئ. في بعض جانبي الصواب، ولكنني عندما أدركت هذا، طلبت السماح.

أنا أيضًا، خصوصًا في فترة الشباب، كذبت. كذبت، ولكن انتبهي، لم أزيغ. ثم توقفت، وقلت الحقيقة من بعدها، ليس بسبب موقف أخلاقي، ولكنني استطعت أن أختبر أن قول الحقيقة أكثر الطرق المريحة للخروج من أوضاع مزعجة. ليتمكن المرء من الاستمرار في الكذب يحتاج بالضرورة إلى أن يكذب أكثر، ويدخل هكذا متاهة ملتوية ليس لها طريق خروج. أما الحقيقة فهي مثل النقطة الثابتة، لا يمكن لأحد أن يتحرك في ما وراءها. يمكن أن تتسبب في مواقف قاطعة، يمكن حتى أن تتسبب في نهاية صداقة أو علاقة عمل، ولكنها على كل حال، لا تكون لها أذيال، فالحقيقة دائمًا واحدة.

بينما تقرئين كلماتي هذه هناك فكرة أخرى خاطئة يمكن أن تكونيها، هي أن سني المتقدمة جعلتني متشائمًا جدًا. ولكن ليس الأمر هكذا، فأنا لا أحتمل «المزاج الأسود للغروب»، الذي كتب عنه ألفييري (116). أعتقد أنني لا أندم على شيء مما مضى، ولم أقل قط الجملة التي عادة ما يقولها الكبار في السن، تلك التي تبدأ بعبارة «في زمني...»، بل بالعكس أعتقد أن التقدم في السن قد منحني بعضًا من التفاؤل. واقع أنني أؤمن بالبشرية، وأثق بالإنسان.

كان هناك فيلسوف في القرن العشرين قال إنه، في فترة ما كان يوجد أبطال يُحتذى بهم، ولكن الآن لم يعودوا موجودين، فبطل اليوم هو الإنسان العادي. الإنسان العادي الذي يعرف ما الهزيمة، وما التصرف الربح، ويعرف كيف يختبئ خلف الزاوية، ولكن لديه وعي كامل بكل هذا، ومستمر، رغم كل شيء، في المضي قدمًا.

أجيب علي كثير من الشباب، الذين يأتون لزيارتي في الفترة الأخيرة طلبًا للنصيحة، وأقول لهم إن لديهم واجبًا محددًا، ألا وهو أن يتخلصوا منا نهائيًا. نحن اليوم لسنا سوى موتى يسرون. موتى بمعنى أن أفكارنا ومعتقداتنا تنتمي إلى زمن لا مستقبل له، وبالتالي «دعوا الموتى يدفنون موتاهم».

إن الشباب لديهم القدرة على أن يقوموا بعملية المحو تلك، وأن يمنحوا السياسة أخلاقياتها المفقودة، لديهم الإمكانيات لمنح اتجاه مختلف وجديد للحياة المشتركة، ويستطيعون أن ينهضوا بلدنا ليس فقط اقتصاديًا، ولكن من خلال غرس القوة الساحرة لنموذج مثالي جديد. أنا متأكد أن ثقتي هذه ستكون في محلها.

ماذا أيضًا أقوله لك عن نفسي؟ لست في ظروف تسمح بأن أقترح عليك شيئًا خاصًا باستعمالك لحياتك. الطريقة التي يستخدم المرء بها حياته يتعلمها فقط بأن يعيش تلك الحياة.

لديّ تلك الفكرة أننا بمجرد ميلادنا، الذي يحدث ضد رغبتنا، توضع ورقة غير مرئية فوقنا، بطاقة، عليها يُطبع كل مستقبلنا، شبابنا، نضوجنا، الأمراض والمآسي، الشيخوخة والموت. كل شيء مكتوب. بالنسبة إليّ، على سبيل المثال، أصبت بالعمى في سن التسعين. لم يكن الأمر سهلاً على الإطلاق، كان يمكنني أن أقرر أن أهمل كل شيء، بما في ذلك نفسي، ولكن بسبب ثقتي بالإنسان فعلاً، وبالتالي بنفسني، استطعت العثور على الطريقة التي أتصرف بها. هذا هو موقفني نفسه تجاه الموت: فأنا لا أخاف الموت، يؤسفني فقط بشدة أن عليّ أن أترك الذين أحبهم جدًا.

ماذا أيضًا يمكنني أن أضيف؟ تعلمت أشياء قليلة جدًا وسأقولها لك.

الشيء الأول أن الذئب ليس شريكًا كما أخبروك في الحدوتة. الذئب ليس شريكًا ولا طيبًا، فهذه ليست سوى صفات تمنحها له، في حين أنه لا يعلم أي شيء عنها. الذئب لا يعقر إلا إذا كان جائعًا. الرجل يعقر ليس جوعًا ولكن بسبب الحقد والغيرة والعداوة، وهذا، بخلاف الذئب، يجعله مذنبًا.

الشيء الآخر الذي تعلمته هو أن بالتأكيد اثنين زائد اثنين لا تساوي أربعة، فالخبرة علمتني أن اثنين زائد اثنين يمكن أن تساوي ثلاثة أو حتى خمسة. ستسألين نفسك، ما معنى هذا؟ حسنٌ، ستتعلمين هذا بالتحديد من الحياة. على سبيل المثال، كثيرًا في نهاية عملية ما -التي يخرج منها المرء وقد هوجم وأدين- ينتابه الشك أن اثنين زائد اثنين لا تساوي أربعة.

وأنتهز بسرعة هذه الفرصة لأقول لك إنني لم أكن كفتًا قط لأعبر عن أية أحكام مطلقة على أفعال الآخرين. لقد كان يئتابني دائمًا كثير من الشكوك. منذ فترة طويلة، استُدعيت إلى وزارة العدل في روما، وهناك أبلغني أحد المستشارين أن اسمي وقعت عليه قرعة التحليف الشعبي لمحاكم الجنائيات. شعرت بأنني على وشك أن أفقد الوعي:

- هل يمكنني أن أرفض؟

- لا، مستحيل.

كدت أبكي: أرجوك، أنا لا أستطيع أن أدين أحدًا.

نظر إليّ وفتح ذراعيه:

- ماذا تريدني أن أقول لك؟ لا يمكن لسيادتك أن ترفض هذا.

عندئذٍ سقطت مني دمعتان، ونظر هو إليّ مدهوشًا. قال:

- ولكن هل بالفعل يتسبب لك الحكم على شخص آخر في كل هذا الخوف؟

أجبتة:

- أجل، لست كفيًا لهذا، صدقني.

عندئذٍ دفعه التعاطف معي إلى أن يقترح:

- ربما هناك طريق للخروج.

تشبثت بتلك الكلمات كغريق يتشبث بلوح خشبي:

- ما هو؟ أرجوك دلني عليه.

- سيادتك موظف في الدولة؟

أجبتة: لا.

قال: إذاً هذا هو الطريق، أن تُحضر لي في الغد شهادة من طبيب نفسي بأن سيادتك لست في كامل صحتك العقلية، هل كلامي واضح؟

صحت بكل سعادة:

- أجل تمام الوضوح.

وفي خلال بضع ساعات عثرت على أحد الأطباء النفسيين، وفي اليوم التالي تقدمت إلى المستشار ومعى شهادتي الطبية، قرأها، ونظر إليّ قائلاً: كل

شيء على ما يرام. صافحته، وكنت أود لو قبّلت يديه، وهكذا، قي الملفات  
القضائية، صُنفت كمجنون.

الشيء الأخير الذي تعلمته هو حتمية أن تكون لكل منّا فكرة ما، ولنسمّها إذاً  
الفكرة المثالية، التي يجب أن يتمسك بها ولكن دون أيّ تحزّب، والاستماع  
دائمًا إلى أفكار الآخرين المختلفة عن أفكارنا الخاصة، داعمين أسبابنا  
بصلابة، وأن نشرحها ونعيد شرحها، وقد -لمَ لا؟- نغيّر فكرتنا نفسها.

تذكري دائمًا أنكِ، سواء كنتِ منهزمة أو منتصرة، لا يوجد علم لا يشحب لونه  
من تأثير أشعة الشمس.

والآن حدثيني عن نفسك.

روما، أغسطس ٢٠١٧

## هوامش

(1) Porto Empedocle : مدينة في إيطاليا وبلدية على ساحل مضيق صقلية، جزء من مقاطعة أجريجنتو، تحمل اسم إيمبيدوكليس، وهو فيلسوف إغريقي ومواطن من مدينة أجرجنتوم، أجريجنتو حاليًا، التي كانت حينها مستعمرة يونانية في صقلية.

(2) Luigi Facta: رئيس الوزراء الإيطالي في الفترة بين فبراير وأكتوبر ١٩٢٢، وشغل قبلها عدة حقائب وزارية أخرى.

(3) Giacomo Matteotti: سياسي وصحفي، اختطفته إحدى الفرق الفاشية واغتالته بناء على تعليمات من موسوليني بعد أن تحدث في البرلمان عن التزوير الانتخابي واستخدام الفاشيين للقوة والقمع للحصول على أصوات.

(4) Antonio Gramsci: فيلسوف ومناضل ماركسي إيطالي، وُلد في ساردينيا عام ١٩٨١. عام ١٩٢١ أسس الحزب الشيوعي الإيطالي مع مجموعة، وترأس لجنته التنفيذية، وفي نوفمبر عام ١٩٢٤ أُودِعَ السجن بناءً على أوامر من موسوليني، وقضى هناك السنوات العشر الأخيرة من عمره حتى تُوْفِيَ تحت وطأة التعذيب.

(5) Opera Nazionale Ballila

(6) بندقية قديمة الطراز خاصة بجند المشاة.

(7) Conrad, Melville, Simenon.

(8) Alessandro Pavolini: سياسي وصحفي إيطالي (١٩٠٣-١٩٤٥). كان معروفًا بتورطه مع الحكومة الفاشية في أثناء الحرب العالمية الثانية وبوحشيته تجاه المناهضين للفاشية.

(9) Gaspare Giudice, Luigi Giglia.

(10) Baldur von Schirach, Hitler-Jugend.

(11) Mein Kampf.

(12) Nicolai Gogol: كاتب روسي (١٨٠٩-١٨٥٢)، يُعتبر أحد مؤسسي المدرسة الواقعية في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر.

(13) André Gide: كاتب فرنسي (١٨٦٩-١٩٥١)، حصل على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٤٧، له عدة مؤلفات وأبحاث وترجمات عن الإنجليزية.

(14) وفي ترجمة عربية أخرى «القدر الإنساني» بالفرنسية La condition Humaine تأليف André Marlaux.

(15) Manifesto.

(16) Valle dei Templi.

(17) الفارق بين الفعلين في اللغة الإيطالية حرف، وهنا تكمن المزحة.

(18) La Nazione.

(19) Fio Belcari: (١٤٨٤-١٤١٠) شاعر فلورنسي وكاتب دراما إيطالية ذات طابع ديني.

(20) Ettore Li Gotti.

(21) Jacques Copeau.

(22) Giuseppe Ungaretti: شاعر إيطالي (١٨٨٨-١٩٧٠) وُلد في الإسكندرية (مصر) التي عاش فيها حتى سن الرابعة والعشرين لينتقل بعدها إلى فرنسا والبرازيل ثم إلى إيطاليا، وترجم عديد من أشعاره إلى اللغة العربية.

(23) Gianfranco Contini, Carlo Bo, Giansiro Ferrata

(24) Pier Paolo Pasolini: شاعر ومفكر ومخرج أفلام وكاتب، تُرجم بعض أعماله الشعرية ومسرحياته إلى اللغة العربية.

(25) Andrea Zanzotto

(26) Leo Guida, Marcello Carapezza, Giuseppe Ruggero

(27) Silvio d'Amico

(28) Orazio Costa (١٩١١-١٩٩٩): أستاذ مسرح إيطالي ومخرج مسرحي، تخرّج في الأكاديمية الوطنية للفن الدرامي (أكاديمية سيلفيو داميكو حاليًا).

(29) Minerva film

(30) Stazione Termini: محطة القطار الرئيسية في روما.

(31) Luigi Zampa.

(32) Processo alla città.

(33) Amedeo Nazzari.

(34) Porta Pia: إحدى بوابات الأسوار المحيطة بروما، التي تُقام في منطقتها سوق مشهورة تباع الكتب والأنتيكات.

(35) Francesco Rosi.

(36) Raffaello Matarazzo.

(37) Amadeo Nazzari.

(38) Yvonne Sanson.

(39) William Faulkner: روائي أمريكي وشاعر، ومن أكثر الكتاب تأثيرًا في القرن العشرين. حصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٩.

(40) John Steinbeck: كاتب أمريكي، من أشهر كتاب القرن العشرين.

(41) Arancini.

(42) Sandro d'Amico.

(43) Chicco Pavolini.

(44) Giovanni Calendoli.

(45) Raoul Maria De Angelis.

(46) Contini.

(47) De Feo.

.Prosperi (48).

(49) Pico della Mirandola (1463-1494): فيلسوف، لاهوتي، ومفكر إيطالي، درس ولخص أهم المدارس الفلسفية المعروفة في زمانه خصوصًا الأفلاطونية الحديثة.

.Rosetta Dello Siesto (50).

.Leo Guida, Gaspare Giudice (51).

.Luigi Lungo (52).

.Libero Bigiaretti (53).

(54) Massimo Bontempelli (1878-1960): كاتب وشاعر وصحفي وملحن وكاتب مسرحي، وكاتب خيال علمي.

(55) Galvano Della Volpe (1895-1968): أستاذ فلسفة ومتخصص في النظريات الماركسية الغربية.

(56) Sibilla Aleramo: اسم الشهرة للكاتبة الإيطالية Marta Felcina (1876-1960)، كانت كاتبة نسوية، عُرفت بوصفها لحياتها كامرأة في القرن

التاسع عشر.

(57) Giacomo Debenedetti (١٩٠١-١٩٦٧): صحفي وناقد أدبي وكاتب.

(58) Inam: Istituto nazionale assistenza malattie

(59) Mario Apollonio

(60) Diego Fabbri (١٩١١-١٩٨٠): كاتب مسرحي إيطالي تركّز كتاباته على النصوص الدينية.

(61) Pier Emilio Gennarini

(62) Cesare Lupo

(63) Filiberto Guala

(64) Marcello Rodinò

(65) Angelo Romanò.

(66) Eduardo De Filippo (1900-1984): مخرج مسرحي ومخرج أفلام وكاتب مسرحي وممثل. تُرجم عديد من أعماله إلى اللغة العربية.

(67) Mario Ferrero, Giacomo Colli.

(68) Gianmaria Volonté.

(69) Dario Fo (1926-2016): أديب ومسرحي إيطالي، يُعتبر من رواد المسرح الاحتجاجي الساخر، نال نوبل للآداب عام 1997. تُرجم عديد من أعماله إلى اللغة العربية.

(70) Ruggero Jacobbi.

(71) Aristide Baghetti.

(72) Flipper بالإيطالية، Pinball بالإنجليزية، هي إحدى لعب الممرات التي تهدف إلى محاولة اللاعب تسجيل أكبر عدد ممكن من النقاط عن طريق التلاعب بكرة معدنية داخل صندوق مغطى بالزجاج.

.Il corso delle cose (73)

.Nicolò Gallo (74)

.La mano sugli occhi (75)

.Lalli (76)

.Ruggero Jacobbi (77)

.Gina Lagorio (78)

.Livio Garzanti (79)

.La Strage dimenticata (80)

(81) Leonardo Sciscia (1921-1989): روائي وسياسي، كاتب مسرحي وشاعر،  
تُرجم بعض أعماله إلى اللغة العربية.

.Elvira Sellerio (82)

.Stagione della caccia (83)

(84) Majakovskij: فلاديمير ماياكوفسكي (١٨٩٣-١٩٣٠) كاتب وشاعر روسي.

.Il trucco e l'anima (85)

.La forma dell'acqua (86)

(87) Il cane di terracotta: ترجمت إلى اللغة العربية.

.Il re di Girgenti (88)

.Il birraio di Preston (89)

(90) La connessione del telefono، تُرجمت أيضًا إلى «تركيب التليفون».

.Maruzza Musumeci, Il casellante, Il sonaglio (91)

(92) Michel de Montaigne (1533-1592): أحد أكثر الكتاب الفرنسيين تأثيرًا في عصر النهضة الفرنسي.

Pietro Folina (93)

.Il Messaggero (94)

.la Repubblica (95)

.La Stampa (96)

.l'Unità (97)

.Micromega (98)

.Paolo Flores d'Arcais (99)

.Alcide De Gasperi (100)

.Luigi Einaudi (101)

.Palmiro Togliatti (102)

.Pietro Nenni, Sandro Pertini (103)

.Carlo Sforza, Ferruccio Parri (104)

(105) Partito d'azione: حزب تأسس عام ١٩٤٢ وحلَّ عام ١٩٤٧ وسُمِّي على اسم حزب قديم كان أسسه جوزيبي ماتزيني عام ١٨٥٣.

.Amintore Fanfani (106)

(107) Aldo Moro (١٩١٦-١٩٧٨): سياسي إيطالي تولى رئاسة الحكومة الإيطالية مرتين، وتولى أيضًا حقائب وزارية مختلفة.

(108) Fedele Confalonieri (ميلانو ١٩٣٧): مدير المؤسسة الإيطالية والرئيس الحالي لميديا ست Mediaset.

.Conte Coudenhove'Kalergi (109)

.Altiero Spinelli ([110](#))

.Ernesto Rossi ([111](#))

.Eugenio Colorni ([112](#))

.Baldur von Schirach ([113](#))

.Brennero ([114](#)): مقاطعة إيطالية تقع على حدود النمسا.

([115](#)) Pier Bruegel de Oude (١٥٢٥-١٥٦٩): رسام هولندي تميّز بلوحات تصوّر مشاهد القرى والمواضيع الدينية والمناظر الطبيعية.

([116](#)) Vittorio Alfieri (١٧٤٩-١٨٠٣): كاتب مسرحي وممثل وشاعر، اشتهرت أعماله بالتركيز على الحرية والسلطة والانتصار على الطغيان.